مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦

الأعمال الإبداعية

قلبي ليس في جيبي

احسان عبدالقدوس



قلبى ليس فى جيبى

إحسان عبد القدوس

الحلقة الأولى

كان الناس يتلقون رؤية سارة كأنهم ينظرون إلى تحفة تبهرهم .. إن سمارها الداكن .. وشعرها الأسود الذى يتدلى حتى كتفيها .. وابتسامتها الدائمة التى تكشف عن صف من اللؤلؤ الأبيض اللامع معلق بين شفتيها .. ثم قوامها الرفيع الطويل الذى يتمايل فى مرونة طبيعية كأنه لا يرتكز على أى مجموعة من العظام .. كل ذلك كان يثير الانبهار بها .. وهو غالبا انبهار مهذب رؤوف كأن كل من يراها يحرص على سلامة هذه التحفة فلا يحاول أن يمد يده إليها أو ينحدف عليها حتى لا يشوهها ويفقدها روعة جمالها ..

وكانت سارة نفسها منذ بدأت تعى وهى تحس بروعتها وقوة اجتذابها لكل العيون من حولها .. وكانت معتزة بسمارها الداكن وتحس به أنها أجمل من أى فتاة بيضاء أو فاتحة السمار .. إنها فخورة بسمارها الداكن كأنها تتباهى به قبل أن تتباهى بأى لمحة من ملامح جمالها .. وكانت تقف أمام المرآة وتبحلق فى صف اللؤلؤ الذى تكشف عنه شفتاها وهى فخورة به .. ولولا سمارها الداكن لما برز كل هذا الجمال لأسنانها البيضاء .. ثم تتطلع فى المرآة إلى كل كيانها لتطمئن إلى أنها لم تفقد شيئا ولم يصب جمالها أى خدش ثم تنطلق ..

كانت تنطلق دائما وراء ذكائها .. والذكاء يحدد لها كل حظوة تخطوها وكل كلمة تنطق بها .. بل يرسم لها مدى اتساع ابتسامتها .. إنها فى منتهى الذكاء الذى تحتاج إليه فتاة فى مثل عمرها .. وقد كانت تعيش مع أمها وإخوتها الأصغر منها فى شقة متواضعة بإحدى الحوارى المتفرعة من شارع الهرم .. وقد توفى والدها منذ سنوات وتركهم وهم ليسوا أغنياء ولكنهم يستطيعون الاستمرار بالحياة فى أدنى مستويات الاستغناء .. ومنذ تفتح وعيها وهى ترى أفق الحياة البعيدة عنها .. أفق منتهى الرخاء ومنتهى العز والثراء ..

ونحلم بأن تصل بنفسها إلى هذا الأفق .. ولكنها حتى بعد أن تعدت صباها لم تكن تفكر فى أن تتزوج رجلاً يوفر لها هذا الرخاء .. إن ذكاءها منحصر فى أن تصل بنفسها إلى مستوى هذا الأفق البعيد .. وقد بدأ يتقدم إليها من يريد الزواج وكانت ترفض دائما مهما ألحت عليها أمها .. كما أنها تعرضت كثيرا لمحاولات الشبان الاستيلاء عليها ، وكانت تستطيع دائما أن تقاوم وتهرب مهما ارتفعت قوة الإغراء .. وربما كانت ابتسامتها المبهرة النظيفة تدفع هؤلاء الشبان إلى تحمل مسئولية الحرص على سلامة هذه التحفة .. ولذلك ظلت محتفظة بصداقة الجميع دون أن تتعرض لأى خدش ..

وكان المجال الأوسع الذى تبحث فيه عن الآفاق البعيدة قد بدأ بالمدرسة .. لقد استطاعت أن تكون دائما شخصية بارزة فى كل مدرسة تضمها .. وكانت تهتم بمظهرها وزيها واختيار الكلام والتصرف حتى كانت دائما تصل إلى القمة بين الطالبات .. وصديقاتها من العائلات الراقية يرفعنها إلى هذا المجتمع العالى الذى تحلم به ..

وكانت قد انتهت من الدراسة الثانوية متفوقة .. واستطاعت أن تصل إلى الالتحاق بالجامعة الأمريكية .. وربما اختارت الجامعة الأمريكية لأن أحلامها وصلت إلى تصور السفر إلى أمريكا بعد أن تتفوق فى الجامعة الأمريكية .. أى تسافر فى بعثة دراسية تغنيها عن تحمل النفقات .. وقد تجد فى أمريكا طريقا أسهل للوصول إلى الآفاق البعيدة .. وكانت لا تزال فى العام الأول من الجامعة الأمريكية عندما التقت بالسيدة هدى هانم السحيلى ..

وكانت إحدى زميلاتها فى الكلية قد دعتها إلى حفل استقبال فى بيتها .. وهناك التقت بهدى هانم .. ولم تكن تعرفها ولكنها كانت تسمع عنها .. تسمع أنها سيدة ثرية جدا وزوجها كان أحد الباشوات ولكنها ظلت محتفظة بشخصيتها وقوة ثرائها بعد أن ضاع زوجها حتى أنها افتتحت محل بوتيك لبيع المصنوعات التى تحتاج إليها النساء .. ولم تقم هذا البوتيك فى شارع

الشوارع كبقية البوتيكات التى افتتحت أيامها ولكنها أقامته فى داخل الفندق الكبير .. ورغم السيطرة العنيفة التى كانت تفرضها الحكومة على مثل هذه المحال إلا أن هدى هانم استطاعت أن تتعامل مع المسئولين عن هذه السيطرة وتحتفظ بقدرتها على تحقيق أرباح ضخمة .. بل كان يقال عنها كثير من الحكايات عن علاقاتها بهؤلاء المسئولين رغم أنها لم تكن شابة ولا فى منتهى الجمال .. ولكنها كانت قادرة على تحقيق مبدأ .. خذ وهات .. مع أى إنسان ..

ولاحظت سارة أن هدى هانم لا تسقط عينيها عنها وبين شفتيها ابتسامة كأنها تدعوها بها إليها .. ولا تحاول سارة تلبية الدعوة وإن كانت تتبادل معها الابتسامة كلما اصطدمت عيناها بها .. إن سارة لا تحس بحاجتها إلى هذه السيدة ولا تدرى ما يمكن أن تكون هذه السيدة تريده منها بهذه الابتسامة التى تسلطها عليها .. إلى أن انتقلت هدى بنفسها وجلست بجانب سارة وأخذت تحدث وتقول لها إنها شدتها بجمالها وخفة دمها وتمنت أن تكون ابنتها .. وسارة تستمع إليها بابتسامتها وهى تركز كل ذكائها فى انتظار أن تكتشف ماذا تريد هذه السيدة منها .. إلى أن قالت لها هدى هانم وهى تزداد منها اقترابا وكأنها تهمس :

ــ لقد قررت أن أعتمد عليك فى عمل مهم ..

وقالت سارة فى دهشة :

ــ أى عمل ؟

وقالت هدى وهى تضغط على ذراعها كأنها تشدها إلى سر خطير :

ــ لتعملى معى فى البوتيك ..

وقالت سارة بدهشة المفاجأة :

ــ ماذا أعمل .. إنى لم أعمل أبدا فى بوتيك .. ولا أعرف شيئا عن هذا العمل ..

وقالت هدى هانم وهى تنظر إليها كأنها لا تزال مبهورة بها :

ـ ستعرفين كل شىء .. ولكننا لن نستطيع أن نتكلم هنا .. هل يمكن أن تأتى لزيارتى ..

وقالت سارة مقاطعة :

ـ أزورك فى البوتيك ..

وقالت هدى بسرعة :

ـ لا .. فى بيتى .. هل يمكن أن تعدينى بأن أراك فى بيتى ..؟

وقالت سارة :

ـ متى ..؟

وقالت هدى هانم بسرعة :

ـ لو استطعت لأخذتك معى الليلة .. ولكن لنلتق غداً ..

واتفقتا على لقاء الغد .. وسارة سارحة لا تستطيع أن تصل بذكائها إلى قرار .. لا تستطيع أن ترحب بهذه المفاجأة ولا تستطيع أن ترفضها .. وقد ابتعدت عنها هدى هانم كأنها تتعمد ألا تثير الانتباه إليها وهى بجانب سارة .. وقضت سارة بقية السهرة بين المدعوين وهى لا تستطيع أن تتخذ قراراً فيما عرض عليها .. وعادت إلى بيتها وهى لا تزال حائرة .. ولكن لماذا تضع نفسها فى هذه الحيرة .. إنها لم تعرف بعد شيئا عن العمل المعروض عليها ..

وفى اليوم التالى كانت مع هدى هانم وتركتها تتحدث طويلا عما تعرضه عليها .. إنها تريدها أن تكون بائعة فى البوتيك .. وليس معها إلا فتاة أخرى لن تكون رئيسة عليها ولكنها مجرد مساعدة .. وحتى إذا لم تسترح سارة بوجود هذه الأخرى فإنها تستطيع أن تستغنى عنها .. وهى نفسها أى هدى هانم تتردد على البوتيك كل يوم ولكنها لا تبقى طول اليوم فإن مسئولياتها تفرض عليها أن تنشغل خارج المحل .. أى أن سارة ستكون المسئولة وحدها عن إدارة البوتيك ..

وقاطعتها سارة قائلة وهى سارحة فى أفكارها كأنها تخاطب نفسها :

ـ ولكنى لا أعرف كيف أبيع .. إنى لم أبع أى شىء فى حياتى ..

وقالت هدى هانم :

ـ ليس المهم هو عملية البيع نفسها .. المهم هو كيفية استقبال الزبون والترحيب به واكتساب صداقته وثقته .. وأنا واثقة أنك ستكونين عبقرية فى اكتساب الزبائن .. أما عملية البيع نفسها فهى سهلة .. وتحديد السعر الذى تبيعين به يعتمد على قيمة شخصيتك لا على قيمة ما تبيعينه .. وأنا منذ لمحتك اقتنعت بأن شخصيتك لها قيمة كبيرة .. قيمة التحفة الغالية ..

وقالت سارة وهى لا تزال سارحة كأنها تخاطب نفسها :

ـ إنى طالبة فى الجامعة الأمريكية ..

وقالت هدى هانم فى إلحاح :

ـ ستجدين وسيلة تجمعين بها بين عملك ودراستك .. وسأخصص لك ثمانين جنيهاً فى الشهر مرتبا لك ..

واتسعت عينا سارة كأنها فوجئت .. لقد عاشت العمر كله دون أن يصل إلى يديها مثل هذا المبلغ الكبير .. ثمانون جنيها .. إنها تعلم أن خريجى الجامعة لا تصل مرتباتهم إلى أكثر من ثلاثين جنيها .. أو أربعين .. وهى لم تتخرج من الجامعة بعد وتعيش على جنيهات قليلة تستدرها من أمها وإن كانت بذكائها تعودت أن تستغل هذه الجنيهات لتغطية مظهرها بما يساوى أكثر منها .. وعقدت المفاجأة لسانها ولم تنطق بكلمة .. وربما فسرت هدى هانم سكوتها على أن المبلغ لا يرضيها فقالت بسرعة :

ـ لكن المرتب مائة لا ثمانين .. وهذا علاوة على نسبة واحد فى المائة من كل مبلغ تبيعين به .. وأنت وشطارتك .. قد تصلين إلى ألف جنيه فى الشهر .. وأحب أن أقول لك إنى لم أدفع أبدا مرتبا أكثر من ستين جنيها ولكنك توحين إلى بأمل كبير ..

وزادت عينا سارة اتساعا بالدهشة .. مائة جنيه .. ألف .. إن أحلامها لم ترتفع بها أبدا إلى هذا الحد .. فلماذا تتردد .. لماذا لا تجرب على الأقل .. إنه طريق فتح أمامها الآفاق البعيدة .. وضغطت على كل أعصابها حتى استردت هدوء واستقرار ذكائها وقالت وهى تتعمد أن تبدو كأنها لم تدهش :

ـــ موافقة .. لنجرب ..

وقالت هدى هانم فى فرحة :

ـــ لنبدأ من الغد .. غدا سأراك فى البوتيك الساعة العاشرة ..

وقالت سارة وهى تقاوم فرحتها حتى تبدو هادئة :

ـــ غداً ..

وهمت أن تقوم لتنصرف ولكن هدى هانم أجلستها وكأنها قد أصبح لها حق إصدار الأوامر إليها بعد أن أصبحت موظفة لديها .. وأخذت تحدثها عن كل ما يعرضه البوتيك للبيع .. وتشرح لها تفاصيل مستويات الأسعار ونوع الخدمات .. وتحدثت طويلاً .. وسارة تستوعب كل ما تسمعه كأنها تحفظ درساً جديداً تتلقاه .. وبعد أن انتهت هدى من كلامها قامت ودخلت ثم عادت تحمل ثوبين قدمتهما إلى سارة قائلة :

ـــ هذه فساتين لتظهرى بها فى البويتك ..

وفردت سارة الثوبين .. إنهما قطعا صناعة أجنبية .. وقلبتهما أمام عينيها .. ثم قالت وقد استجمعت كل قوة شخصيتها .. قوة الفتاة التى تعرف أنها تحفة :

ـــ هل هما مما يباع فى البوتيك ..؟

وقالت هدى ضاحكة :

ـــ فعلاً .. إنك شاطرة .. تعرفين من أين يصل إليك أى شىء ..

وقالت سارة وهى جادة :

ـــ أرجو أن تتركى لى حق اختيار ما أظهر به .. حتى ألبس ما يتفق مع ذوقى .. وذوقى يعبر عن شخصيتى .. وغدا سأختار من البوتيك الثوب الذى

أرتديه وأظهر به ..

وتحلقت فيها هدى هانم بعينين ثائرتين .. كأنها فوجئت بشىء لم تقدره فى هذه الفتاة .. إنها جريئة تحاول أن تفرض إرادتها وتستقل بنفسها .. ولكن هدى كتمت سخطها بسرعة وقالت مستسلمة :

ـــ كما تريدين .. سأتركك لما يختاره ذوقك .. ويبدو حتى الآن أنه ذوق جميل ..

* * *

وفى اليوم التالى كانت سارة مع هدى هانم داخل البوتيك وقد تفرغت بكل طاقتها لهذه التجربة الجديدة .. التجربة التى تخرج منها بمائة جنيه فى الشهر على الأقل .. وخلال يومين كانت قد ألمت بكل ما يباع .. الفساتين .. والجونلات .. والجوارب .. والبنطلونات .. ولوازم الأطفال .. ولوازم التجميل .. وزجاجات العطر .. والتحف .. و .. و .. وكانت تستوعب تفاصيل كل نوع مما يباع .. إنها كلها بضائع مستوردة .. وأغلبها مستورد من محلات مارك أند سبنسر فى لندن .. إنه اسم يجذب كل زبائن القاهرة ..

وبدأت تستقبل الزبائن وتتعامل معهم .. وكانت مقتنعة بالمبدأ الذى وضعته لها هدى هانم وهو أن التجارة لا تقوم على قيمة البضائع ولكنها تقوم على قوة شخصية البائع .. فكانت تقدم للزبون أقوى ما فى شخصيتها .. الابتسامة التى تكشف عن صف اللؤلؤ الذى يلمع داخل لونها الأسمر الداكن .. والصوت الهادىء الناعم كأنه صوت فتاة خجول تردد به كلماتها .. والترحيب الذى يبدأ بتقديم فنجان القهوة بمجرد ظهور الزبون وأغلبية الزبائن دائما من النساء .. وكن يتعلقن بها منذ أول لقاء ويبدو أن لونها الأسمر الغامق كان يحميها من أن تغار منها بقية النساء فالغيرة لا تشتد إلا بين نساء اللون الواحد أو اللون المتقارب .. وانفرادها عنهم بهذا السمار الغامق الداكن يرحمها من الغيرة .. فتستطيع أن تستغل الزبونة فى دفع أعلى الأسعار ..

وكان من النادر أن يدخل البوتيك أحد من الرجال .. وكل منهم يبهر بالتحفة العالية التي تلتقي بها عيناه .. وهي تتلقى انبهاره بابتسامتها التي تكشف عن صف اللؤلؤ .. وتتحمل هادئة كل محاولاته معها وإن كانت تستغل هذه المحاولات في أن تبيع .. ولكن رؤوف عزمي تمادى في محاولاته .. إنه معروف بأنه من كبار رجال الأعمال ومن المقربين جدا إلى المسئولين ورغم أهميته فقد أصبح يتردد على البوتيك كل يوم .. وينفرد جالسا مع سارة كأنه لقاء خاص .. وفي يوم دخل إليها وهو يقول قبل أن يجلس قبالتها :

ـــ ما رأيك .. هل أشترى ثوبا أم شيئا آخر ..؟

وقالت من خلال صف اللؤلؤ :

ـــ لقد وصلتنا فساتين رائعة ..

وقال ضاحكا :

ـــ هل من رأيك أن أشترى فستانا .. إذن اختاري واحدا ..

قالت في رفق :

ـــ أنت الذي تختار ..

وقال وهو يلتهمها بعينيه :

ـــ لا .. إني أريد أن تختاري أنت ..

قالت مندهشة :

ـــ والمقاس ..

وقال بسرعة :

ـــ مقاسك أنت ..

واستسلمت سارة وانتقت ثوبا عرضته عليه فقال :

ـــ هل يعجبك هذا الفستان ..

قالت في مرح :

ـــ جداً .. ولكنه غال .. خمسمائة وثلاثون جنيها ..

وفي صمت تمختر رؤوف إلى الكيس ودفع المبلغ ثم عاد بالإيصال إلى سارة

وأمسك بالثوب ثم أعاده إليها قائلا وشفتاه تقتربان منها كأنه يهم بأن يقبلها :

ـــ لقد اشتريته لك .. هدية الموعد الذي سيجمعنا خارج هذا المحل ..

وأمسكت سارة بالثوب وهي حائرة هل تقبل أو ترفض وقالت :

ـــ سبق أن قلت لحضرتك إن أمي لا ترحمني ولا تسمح لي بأن أخرج من المحل إلا إلى البيت .

وقال وهو يلتهمها بعينيه :

ـــ إني في انتظار أن تقتنع أمك بي ..

ثم تركها وخرج متعجلا .. لا شك أن وراءه كثيرا من المسئوليات ..

ورفعت سارة الثوب وأعادت تعليقه بين المبيعات .. وروت لهدى هانم صاحبة البوتيك ما حدث وقالت لها إنها ستعيد بيع هذا الثوب ومن حقها أن تأخذ لنفسها الثمن الذي دفعه رؤوف عزمي .. وأجابتها هدى هانم في حزم :

ـــ عشرون في المائة فقط مما دفعه ..

وصاحت سارة في عصبية :

ـــ مستحيل .. لقد أصبح ثوبي أنا ..

وقالت هدى كأنها تخرسها :

ـــ لولا هذا البوتيك لما جاءك هذا الثوب .. ولا التقيت بمن اشتراه لك.. وأنا صاحبة البوتيك وأنفق عليه الكثير حتى أحتفظ بهذا النوع من الزبائن ومن بينهم رؤوف عزمي ..

وطال النقاش بينهما حتى اتفقت على أن يكون لسارة خمسون في المائة من ثمن الثوب على أن تخصم من ثمن مبيعه مرة ثانية لا مما دفع فيه فعلا ..

واستسلمت سارة مضطرة .. إنها لا تزال في البداية التي تفرض عليها الاستسلام ..

وقد استمر رؤوف في محاولاته أياما وهي دائما تستطيع أن تقنعه بمزيد من الانتظار .. إلى أن يئس من الاستيلاء عليها .. وبدأ يقلل من تردده على المحل ..

ولكنها بذكائها استطاعت أن تظل محتفظة بصداقته وهدوئه دون أن يحاول إجبارها على الاستسلام له .. ولم يكن رؤوف هو الوحيد بين الرجال الذين دخلوا إليها وانبهروا بها .. كلهم يحاولون .. وكلهم تستطيع أن تحتفظ بهدوئهم دون أن يصلوا إلى شيء منها .. والغريب أن كل المحاولات للاستيلاء عليها لم تصل أبدا إلى أن يعرض عليها أحدهم الزواج .. كل منهم يريد أن يتذوقها بلا زواج .. لعل الزواج أيضا ليس سهلا إلا بين أصحاب اللون الواحد .. والزواج بين اللون الغامق والفاتح يعتبر حالة شاذة نادرة بل يعتبر نوعا من الشذوذ الجنسى .. ولونها الأسمر الغامق الداكن يبعد عنها تهافت اللون الفاتح على الزواج رغم انبهاره بها .. إن الانبهار لا يكفى وحده للزواج .. وهى نفسها لا تريد ولا حتى تفكر فى الزواج .. إنها لم تصل بعد إلى نهاية الآفاق الواسعة التى تنفتح أمامها ..

وكان هناك رجل آخر أوصتها هدى هانم نفسها بالاهتمام به ورعايته .. هذا النوع من الرعاية الذى يقوم على ما تتضمنه الابتسامة التى توجه إليه .. إنه عبد الموجود البسيونى مأمور الضرائب .. وهو يظهر فى البوتيك فى الشهر مرة على الأقل ويدخل إلى المكتب ويراجع الدفاتر وبجانبه هدى هانم .. ولا شك أن بينهما سرا فالكلام دائما فى همس .. وشىء ما يتم فى كل جلسة .. وينصرف البسيونى وهو منتفخ الأوداج ووجهه مكسو بعظمة كبار الموظفين .. وقد انبهر البسيونى أيضا بصف اللؤلؤ الذى تهديه إليه سارة بابتسامتها حتى إنه بدأ يتردد على المحل أكثر من مرة فى الشهر .. ووصل إلى أن طلب أن تجلس بجانبه وهو يراجع الدفاتر .. وادعى أنها صريحة معه فى كشف أسرار السوق .. ثم كان أحيانا يقوم إليها ويطلب منها أن تلف معه على البضائع المعروضة ليقدر قيمتها بالنسبة للأوراق التى تقدم إليه .. وهدى تشير إليها بأن تستجيب له .. وهو يتعمد أن يلتصق بها وهى جانبه .. وقد يمد يده ويتحسسها تحسسات خفية .. وسارة تستطيع دائما أن تصد محاولاته بشخصيتها وابتسامتها .. وفى مرة قال لها وهو يراجع الدفاتر :

ـــ هل أسجل قيمة الدخل بمليون أم بألف ..؟

وفهمت أنه يغريها بتخفيض قيمة الضرائب التى سيفرضها على المحل .. وقالت ضاحكة :

ـــ أنا مفلسة .. لا مليون ولا ألف .. وعليك أن تسأل صاحبة البوتيك ..

وقال ولعابه سائح على شفتيه :

ـــ لقد أصبحت أنت المالكة .. تملكين المصير حتى مصير صاحبة البوتيك ..

وقالت ضاحكة :

ـــ إذا كنت أنا المالكة فلا مليون ولا ألف .. ولا مليم ..

وقال ولعابه يسقط أمامه :

ـــ سأؤجل الحساب إلى أن نلتقى خارج البوتيك .. متى نلتقى ..؟

وقالت وهى تبعد عينيها عنه تقززاً وإن كانت تدعى الخفر :

ـــ هل تريد لقاء أمى ..

وقال فى حدة وهو يبتلع لعابه :

ـــ لا .. لا .. لن يؤجل الحساب ..

وكان كل لقاء بينهما ينتهى بانفراد عبد الموجود البسيونى بهدى هانم فى جلسة كأنها جلسة سرية ويخرج وهو منتفخ الأوداج .. وكانت سارة تحس بأنها تكتشف عالما كانت تجهله بجلساتها مع عبد الموجود البسيونى .. عالم الضرائب التى يدفعها التجار .. كيف تتهرب من دفع الضريبة .. وإذا دفعت فهى تدفع للحكومة بعد أن تدفع لمأمور الضرائب نفسه .. فكيف وكم تدفع ..؟ وأصبحت تتابع كل تصرفات هدى هانم فى مواجهة التعامل مع الضرائب .. بل كانت تستدرج عبد الموجود البسيونى نفسه ليشرح لها تفاصيل عمليات جمع الضرائب المفروضة دون أن تشعره بأنها تتعمد السؤال ..

إنها تريد أن تعرف وتتعلم كل شىء .. ولا يزال أمامها الكثير مما لا تعرفه ولم تتعلمه .. ولكنها تتقدم بخطوات سريعة لإثبات شخصيتها فى عالم البوتيكات التى يدير معظمها النساء .. حتى أصبح الزبائن يأتون إليها لا إلى هدى صاحبة

البوتيك .. وقد حصلت فى الشهر الأول منذ التحقت بالعمل على عشرين جنيها علاوة على مرتبها بنسبة الواحد فى المائة المقررة لها من ثمن كل ما تبيعه .. وفى الشهر الثانى وصلت النسبة إلى خمسين جنيها .. وفى الشهر الثالث إلى ثمانين .. أى مائة وثمانين جنيها توضع فى يدها فى شهر واحد .. وكانت خلال ذلك تحاول أن تجمع بين عملها فى البوتيك ودراستها فى الجامعة الأمريكية .. تذهب إلى الجامعة لتبقى دقائق تجمع خلالها من صديقاتها المذكرات والكتب الخاصة بالمواد التى يدرسونها وتحاول فى المساء أن تستوعب هذه المواد استعدادا للامتحان .. ولكنها ضاقت بهذه المحاولة .. ثم ما جدوى استمرار تلقى العلم فى الجامعة الأمريكية .. إن العلوم التى تتلقاها فى البوتيك تفيض عليها بالمكاسب وتفتح أمامها الطريق السهل نحو الآفاق الواسعة .. وانقطعت عن التردد على الجامعة .. لم تعد طالبة .. وإن كانت ظلت محتفظة بصداقة الزميلات اللاتى كن معها وتستغل هذه الصداقة فى أن تبيع لهن أو تعتمد عليهن فى جذب الزبائن الجدد ..

وفوجئت بعد أن مضت عليها الشهور الثلاثة وهى تعمل فى البوتيك بهدى هانم وقد قررت أن تصحبها معها إلى لندن ..

وسارة تعلم أن هدى تسافر إلى لندن كل عام أكثر من مرة .. وتغيب أسبوعا أو أسبوعين ثم تعود وتصل وراءها إلى البوتيك حقائب كثيرة زاخرة ببضائع جديدة تعرض فى البوتيك كأنها صرخات تهبل كل النساء .. إن كل ما يبيعه البوتيك مستورد من لندن ومعظمه يحمل علامة محلات مارك أند سبنسر التى اصبحت علامة الاستسلام الكامل لكل الزبائن فى مصر .. وكانت سارة تحاول دائما أن تكتشف أسرار وتفاصيل التعامل مع لندن .. كيف تشترى البضائع هناك وكيف تدخل مصر ؟.. ولم تكن سارة قادرة على اكتشاف أى شىء .. إن هدى هانم تحرم سؤالها عن مصدر هذه البضائع .. بل إنها تصر على أنها لا تسافر إلى لندن إلا لعرض نفسها على الطبيب الذى يعالجها .. رغم أنها لا يبدو عليها أنها فى حاجة إلى أى علاج .. وقد سافرت مرة بعد أن اصبحت سارة تعمل فى

البوتيك ولكنها لم تدعها للسفر معها .. ربما لم تكن قد وثقت فيها واطمأنت إليها بعد .. أما اليوم فهى واثقة مطمئنة إليها كل الثقة والاطمئنان .. إن سارة مع احتفاظها بشخصيتها المستقلة استطاعت بذكائها أن تحاصر هدى بالصداقة والحب ..

وفى يوم فاجأتها هدى هانم بأن تستعد للسفر إلى لندن .

وقالت سارة وهى تشهق من المفاجأة :

ــ ولمن نترك البوتيك إذا سافرت معك ..

وقالت هدى فى لهجة صاحبة المحل :

ــ لن نغيب أكثر من أسبوع .. ونستطيع أن نترك البوتيك فى إجازة خصوصا أننا لسنا فى موسم من مواسم البيع .. وغداً سأرسلك لاستخراج جواز السفر ثم إلى السفارة البريطانية للحصول على الفيزا .. وقد أبلغتهم عنك وستجدين كل شىء سهلا .. والسفر يوم الأحد القادم ..

وعينا سارة مفتوحتان فى ذهول ..

الحلقة الثانية

وفوجئت سارة مرة ثانية بأنها ليست وحدها التى تصحب هدى هانم إلى لندن .. إن ثلاث نساء أخريات يصحبنها .. وثلاث لسن من عمر واحد ولا من طابع واحد .. كل منهن لها عمرها وطابعها ولونها أيضا .. وإن كن الثلاث فى مستوى مهذب ومحترم .. ولم تكن سارة قد التقت بإحداهن داخل البوتيك .. ولكنها سبق أن رأت كل واحدة منهن بالمصادفة خلال الزيارات المتباعدة التى كانت تقوم بها إلى هدى هانم فى بيتها .. وكانت تقدم كل واحدة لها على أنها من بنات العائلة .. وقد التقت بهذه المفاجأة فى المطار حيث كان النساء الثلاث فى انتظارهما .. وقالت سارة فى دهشة :

— هل يسافرن معنا ..

وقالت هدى فى لهجة سريعة باترة :

— إنى فى حاجة إليهن ..

ولم ترد كلمة واحدة .. وكانت هذه هى عادة هدى هانم .. تصارح سارة بالواقع دون أن تفسره لها .. فلم تفسر لها معنى حاجتها إلى هؤلاء الثلاث .. ربما كانت تترك لها أن تكتشف بنفسها أسباب هذه الحاجة .. أو ما ستكون عليه مهمة هاتيك الثلاث .. وقد تعودت سارة فعلا منذ بدأت تعمل مع هدى .. تحاول أن تكتشف بنفسها أسرار كل ما يحيط بها من تصرفات هدى هانم .. وكان ذكاؤها يصل غالبا وفورا إلى اكتشاف السر ولكنها أحيانا كانت تعجز عن الاكتشاف وتتخبط بأفكارها مدة طويلة إلى أن تصل إليه .

وبمجرد وصولهن إلى الطائرة .. اكتشفت سارة أن النساء الثلاث يحملن تذاكر فى الدرجة السياحية .. بينما هى وهدى هانم لهما مقعدان محجوزان

من مقاعد الدرجة الأولى .. وسكتت دون أن تسأل أى سؤال إلى أن تستطيع أن تكتشف السر ..

ثم بمجرد أن وصلن إلى لندن .. وما كدن يخرجن من المطار .. حتى استأذن النساء الثلاث وركبن وحدهن السيارة المخصصة لحمل الركاب .. واختفين .. ولا تدرى سارة إلى أين ذهبن واختفين .. وهى وهدى هانم ركبتا سيارة أجرة سارت طويلا إلى أن دخلت بهما إلى لندن وأنزلتهما عند فندق تشرشل .. إنه فندق فخم .. رائع فى هدوئه .. وقد استقبلت هدى هانم منذ ظهورها على باب الفندق بترحاب كبير وبكل مظاهر الاحترام مما يؤكد أنها زبونة قديمة لهذا الفندق .

ووجدت سارة نفسها تقيم مع هدى هانم فى غرفة واحدة . من الفندق .. إلى هذا الحد أصبحت هدى هانم متعلقة بها .. إلى حد أن تتحمل إقامتها معها فى غرفة واحدة .. ولا شك أن سارة أيضا متعلقة بهدى وترحب بالإقامة معها وتتحمل كل ما يجمع الحياة الخاصة لامرأتين .. ولكنه الذكاء الذى يدفعها إلى كل هذا التعلق بها وليست العاطفة .. بل إن عواطفها كانت تدفعها أحيانا إلى التقزز من طبيعة الحياة الخاصة لهدى ولكنها تستطيع أن تقاوم هذا التقزز وتتحمله وتخفيه وراء صف اللؤلؤ الذى تكشف عنه ابتسامتها ..

ومنذ أن استقرتا فى لندن صحبتها هدى هانم فى الصباح وذهبتا إلى محل « مارك أند سبنسر » .. إنه محل واسع كأنه حى من أحياء لندن .. ومزدحم كأنه شوارع .. وأخذت هدى تطوف بها بين المعروضات النسائية التى يمكن أن تباع فى بوتيك القاهرة .. ولكن هدى لم تكن تدقق فى فرز الأصناف أو تسأل عن الأثمان .. كانت تطوف كأنها تجمع رؤية عامة لما يباع وعما يمكن أن تشتريه .. ثم فاجأتها بعد أن أطلت فى ساعتها بأن خرجت بها من المحل وقالت لها إنها مضطرة أن تتركها وتذهب لزيارة صديقة مقيمة فى لندن .. وستتركها تتناول غداءها وحدها إما فى الفندق أو فى أى مكان تمر

به .. وهى لا تخاف عليها أن تتوه بين شوارع لندن .. يكفى أن تنادى سيارة أجرة وتطلب أن تحملها إلى فندق تشرشل .. ثم أخرجت من حقيبتها ورقة بعشرين جنيها استرلينيا وضعتها فى يد سارة .. وابتعدت عنها بسرعة وألقت بنفسها فى إحدى سيارات الأجرة ..

ووقفت سارة مذهولة .. إنها وحدها فى شوارع لندن ولأول مرة فى حياتها .. ولكنها لا تخاف ولن تتوه .. إنها قادرة على أن تلقى بنفسها فى المجهول .. خصوصا إذا كان مجهولا مغريا يملأ رأسها بالخيال .. كالخيال الذى تثيره شوارع لندن .. وهى واثقة من نفسها .. إنها سمعت وقرأت عن لندن الكثير من قبل أن تجد نفسها فيها .. ثم إنها تجيد الكلام باللغة الإنجليزية ولن تعجز عن التفاهم مع أى مخلوق يمر بها .. وغريبة .. إن العيون التى تتعلق بها فى شوارع لندن أكثر من العيون التى تتعلق بها فى شوارع القاهرة .. بل إنها تتعرض لمحاولات أكثر جرأة مما تتعرض لها فى شوارع القاهرة .. لقد أقدم أكثر من رجل مرت به على محاولة التقاطها والتحدث معها .. وهى لا تقاوم هذه المحاولة إلا بكلمة واحدة .. آسفة .. فيبتعد الرجل عنها مودعا بعينيه المبهورتين .. يبدو أن اللون الأسمر الداكن أقوى جذبا للون الأبيض الإنجليزى .. والشعر الأشقر الفاقع أضعف فى مقاومة الشعر الأسود .. وعقد اللؤلؤ الذى تكشف عنه ابتسامتها يبهر شوارع لندن أكثر مما يبهر شوارع القاهرة .. وأحست وهى تحرك خطواتها فى شوارع لندن أنها تحفة عالمية وليست مجرد تحفة مصرية محلية .

وكانت تتوقف أمام المحال الصغيرة التى تعرض المطالب النسائية .. وتنبهر مما ترى .. وتدخل وتقلب وتسأل .. ثم وجدت نفسها أمام محل كبير ضخم .. عرفت أنه محل « هارودز » .. إن ما يعرضه حتى فى « الفترينات » المطلة على الشارع أجمل وأرقى عشرات المرات من كل ما شهدته من معروضات محلات « مارك آند سبنسر » .. إن النساء فى مصر يعشن جاهلات بمدى ما تطورت إليه الأزياء والمطالب النسائية .. إن خيالهن لا يتجاوز خيال الطبقة العاملة أو الطبقة

الفقيرة فى لندن .. ودخلت المحل تطوف بكل ممراته وأركانه وهى تزداد انبهارا وذهولا .. لماذا لا تحمل كل هذا الجمال إلى القاهرة .

وكانت الساعة قد وصلت إلى الرابعة عندما قررت أن تعود إلى الفندق .. وركبت سيارة أجرة وقرأت العداد بعد أن وصلت وأعطت السائق قيمة المبلغ الذى قرأت أرقامه فصرخ السائق فى وجهها صرخة عاتية وهم أن يترك جلسته وينقض عليها .. لولا أنها تذكرت بسرعة أنه يجب أن تدفع « البقشيش » ولم تكن تعلم قيمة هذا البقشيش .. ولكنها بسرعة شدت جنيها استرلينيا .. من الباقى الذى كان قد أعاده لها السائق وأعطته له .. وهدأ السائق وتحرك بالسيارة وشفتاه ملويتان كأنه يبصق على وجهها دون أن يحترم صف اللؤلؤ الذى تكشف عنه شفتاها ..

وما كادت تفتح باب الغرفة فى الفندق حتى فوجئت بهدى هانم أمامها .. وقالت لها فى هدوء :

ــ لقد تأخرت ..

وقالت سارة فى اندفاع :

ــ لقد كنت أجن بما كنت أشاهده من معروضات لندن .. وكان يمكن أن يربطنى جنونى بما أشاهده فلا أترك الشوارع أبدا .. إن كل ما أراه يثيرنى لأرى أكثر .. لولا أنى بدأت أحس بالجوع ..

وقالت هدى هانم وهى تبتسم شفقة :

ــ إن الغداء والعشاء لهم مواعيد ثابتة فى هذا الفندق .. ولن تستطيعى أن تتناولى غداءك الآن .. ضاع ميعاده .. ولكن يمكنك أن تطلبى مجرد ساندوتش ..

ولم يكن يهم سارة اختيار ما تأكل وقالت وهى لا تزال مندفعة بما شاهدته فى الدكاكين :

ــ لماذا لا تشترى من محلات هارودز ما تبيعينه فى القاهرة .. إن ما يعرضه

يساوى عشرات المرات ما تعرضه محلات مارك آند سبنسر .

وقاطعتها هدى فى هدوء :

ـ يجب أن تسألى عن الأسعار قبل أن تختارى ما تشترينه .. ونحن نشترى لنبيع .. وأنا أعرف كل ما تعرضه لندن وأعرف الأسعار .. والمحل الوحيد الذى يعرض بأسعار يمكن أن تبيعى بها فى القاهرة هو محل مارك آند سبنسر .

وسكتت سارة وهى تتنهد كأنها تتحسر على نصيب نساء مصر .. ولكنها مع سكوتها كانت بذكائها تتلقى درسا جديدا .. وهو الدرس الذى يفرض حساب الأسعار قبل حساب قيمة البضاعة ..

وقضت الأيام بعد ذلك وهى تصحب هدى هانم كل يوم إلى « مارك آند سبنسر » .. ولم تعد هدى تطوف بالمعروضات ولكنها كانت تدخل مباشرة إلى مكتب لأحد كبار موظفى المحل .. لعله المسئول عن التجارة الخارجية .. وتستقبل بترحاب كبير كأنها من كبار المستوردين .. ويبدأ الموظف الكبير يعرض عليها وهى جالسة أمامه نماذج من الفساتين ومن لفات القماش ومن كل ما تطلبه أو ما لا تطلبه .. وفى الوقت نفسه يعرض عليها منشورات تحمل صورا لما يباع أو يعرض عليها قصاصات مما لديه من أصناف البضائع .. والعاملون بالمحل داخلون وخارجون وهم يحملون ما يعرض على هدى هانم .. وهى تسأل سارة عن رأيها فى كل ما يعرض .. ولكنها لا تستجيب دائما لهذا الرأى .. وقراراتها تصدر مباشرة .. ترفع الثوب المعروض أمام عينيها ثم قد تلقيه جانبا أو تقول فى هدوء .. عشرون من هذا الثوب .. أو خمسون من هذه اللفات . أو مائة من هذه الجوارب .. والموظف الكبير يسجل أمامه كل مطالب هدى هانم .

ولم يتم الشراء فى جلسة واحدة بل قضيتا أياما وهما تترددان على نفس الموظف الكبير وتنتقيان بين المعروضات وقد أمسكت سارة بقطعة من المعروضات وقرأت البطاقة الملصقة بها والتى تسجل ثمنها .. ثم سألت هدى وهى تعرض عليها هذه البطاقة :

ـ بكم سنبيع هذه القطعة فى القاهرة ؟

ولم تنظر هدى إلى البطاقة ولكنها قالت مبتسمة كأنها تلقى درسا على سارة :

ـ اضربى الثمن المسجل على البطاقة فى ثلاثة .. الثلث هو ثمن الذى سندفعه .. والثلث هو مصاريف النقل إلى القاهرة .. والثلث الباقى هو ما يعود إلينا من ربح .. فإذا كان الثمن الذى نشترى به هو خمسة جنيهات يصل فى القاهرة إلى خمسة عشر جنيها .. ولكنها جنيهات استرلينية والجنيه الاسترلينى يساوى ثلاثة جنيهات مصرية .. فإذا كنا ندفع فى لندن خمسين جنيها استرلينيا فإننا نبيع فى القاهرة بمائة وخمسين جنيها مصريا .

واستوعبت سارة الدرس بسرعة وقالت ضاحكة :

ـ إننا نرفع الجنيه الإسترلينى إلى أكثر من ثلاثة أضعاف .. إنى أستطيع أن أبيع ما اشتريناه بخمسة جنيهات إسترلينية بخمسمائة جنيه مصرى ..

وقالت هدى وهى تقبل سارة بعينيها :

ـ كل واحد وشطارته .. وانت شاطرة ..

وكانت هدى هانم تبدو وهى تصحب سارة معها كأنها تتعايق وتتباهى بها .. كأنها ملكة تسير فى ركابها جارية غامقة السمار اشترتها من سوق الجوارى بسعر التحفة الغالية .. وكانت تتعمد دفعها إلى التودد إلى كل من تحتاج إليه أو تلتقى به فى لندن .. وتخرج من محل مارك آند سبنسر وتطوف معها الشوارع متعايقة بها .. وتدخل بها مختلف المحال التجارية دون أن تشترى إنما لمجرد الفرجة .. ثم تتناول معها الغداء كل يوم فى مطعم جديد .. وتصحبها فى المساء إلى ملهى راق أو لمشاهدة فيلم أو مسرحية أو لتناول العشاء فى أحد الفنادق الراقية .. إلا فى الأيام التى كانت تفاجىء سارة بأنها مضطرة لأن تتركها وحدها لتتناول الغداء أو العشاء مع صديقات من المصريات المقيمات فى لندن .. وتدعى أنها دعوات رسمية ثقيلة لا تتسع لسارة .. وكان هذا يحدث كل يومين أو ثلاثة .. وسارة متأكدة أن هناك سرا وراء هذه

الدعوات .. وذكاؤها يتعبها فى محاولة اكتشاف هذا السر .. ولكنها لم تكتشفه بعد .. وكان هدى كانت تحاول أن تريحها من محاولة اكتشاف هذا السر .. فكانت بعد أن تعود إليها من هذه الدعوات الغامضة تتعمد تدليلها أكثر .. وقد عادت إليها يوما وأخذت تطوف معها على دكاكين لندن .. ودخلتا محلا صغيرا ولكنه يبدو راقيا .. وأخذتا تقلبان فى الأثواب المعروضة .. ووقع فى يد سارة ثوب رفعته أمام عينيها وصاحت وهى فى منتهى الانبهار :

— إنه رائع .. لماذا لا نشترى منه لنبيعه فى مصر ..

وقالت هدى وهى تحتضنها بابتسامتها :

— هل يعجبك ..

وعادت سارة تصيح :

— جدا .. جدا .. جدا .. ولن نجد ما يوازى روعته فى محلات مارك آند سبنسر

وقالت هدى فى هدوء :

— ادخل وجربى مقاسه على نفسك ..

ودخلت سارة وقاست الثوب وأجرت لها العاملات بسرعة تصليحات بسيطة ليتفق مع قوامها .. وخرجت به إلى هدى هانم وهى تقول :

— لنترك إعداد المقاس لنجربها نحن لمن تشتريه فى القاهرة ..

وقالت هدى هانم فى هدوء :

— إنه لن يباع .. إنه لك وحدك ..

وصممت هدى هانم على إعداد الثوب على مقاس سارة .. ودفعت الثمن الغالى .. وقبلت سارة الهدية وهى تعانى الحسرة كأنها تضن بها على نفسها .. إنها تريد أن تعرض مثل هذا الثوب على كل نساء القاهرة .. وتربح من ورائه كثيرا .. ولكنها تحس أيضا بمدى تدليل هدى هانم لها وغمرها بالهدايا .. ولم يكن هذا الثوب هو الهدية الوحيدة .. لقد اشترت لها كثيرا من الهدايا وإن كانت من

المعروضات العادية فى السوق ولا يتميز عنها إلا هذا الثوب ..

ووصلت هدى هانم إلى الاكتفاء بما اختارته لتشتريه ونبيعه فى مصر . وأخذت تراجع الموظف المختص فيما يجب أن تدفعه .. ستدفع الكثير .. ويومها تركت سارة وحدها بعد أن اتفقت معها على أن تعود للقائها فى نفس المحل فى الساعة الثالثة بعد الظهر .. وغابت .. واختفت .. ثم عادت إليها فى الموعد المحدد وجلسا أمام الموظف الكبير المختص .. ثم فتحت حقيبتها وأخرجت شيكا يحمل اسم أحد البنوك الإنجليزية ناولته للموظف ..

واستطاعت سارة أن تلتقط رقم المبلغ الذى يحمله الشيك .. إنه خمسة وعشرون ألف جنيه إسترلينى .. إنه مبلغ ضخم .. من أين أتت هدى هانم بهذا الشيك .. هل تحتفظ بأموال مصرية فى بنك إنجليزى ولكن مضت عليهما خمسة أيام فى لندن ولم تتردد على أى بنك .. أم أن هناك شخصا مجهولا أو هيئة مجهولة تقوم بتمويل عمليات هدى هانم .

وقامت هدى هانم بسرعة بعد أن أخذت إيصالا بما دفعته .. وتركت البضائع التى اشترتها فى المحل إلى أن تأتى لتحملها وبعد أن يكون المحل نفسه قد اطمأن إلى سلامة الشيك الذى تركته له .. ثم أخذت سارة لتطوف بها فى الشوارع كعادتها قبل تناول الغداء .. وقالت لها وهما تخطوان أمام معروضات الدكاكين :

— لقد أصبحت معروفة فى لندن .. وهناك شخص مهم يريد أن يراك .. وقد دعانا الليلة على العشاء .. وأريدك أن تهتمى جدا باكتساب صداقة وثقة هذا الرجل .. والبسى الليلة الثوب الجديد الذى اشتريته لك ..

ولم تفاجأ سارة بما تطلبه منها هدى .. إنها دائما تعدها مقدما للقاء الناس .. وقالت فى بساطة :

— حاضر ..

وفى الساعة الثامنة مساء صحبتها إلى فندق كلاريدج .. وكلتاهما فى منتهى الأناقة .. وسارة تسير كأنها تخوض فى بحر من العيون الملتهمة وتهتز راقصة

خطواتها تخاف أن تغرق فى هذا البحر .. إلى أن تصلبت وهدى تقدمها إلى الرجل الذى تقدم للقائهما .. إنه الرجل الذى كانت ترى صورته وتسمع عنه فى القاهرة منذ سنوات دون أن تعرفه .. إنه البكباشى عزت محروس الذى كان من أقوى الشخصيات التى تتولى الحكم أيام عبد الناصر .. وقد اختفى من قبل أن يختفى عبد الناصر .. وسمعت أنه أصبح يقيم فى لندن بعد أن حمل معه ملايين من الجنيهات .. لم تكن جنيهات بل كانت دولارات .

وجلست سارة على مائدة العشاء وهى مذهولة .. وتحتار فى اختيار كل كلمة تنطق بها .. ولكن البكباشى عزت يبدو عليه أنه رجل جاد .. إن كل حديثه يدور حول مشروعات وأعمال تجارية ويسرد دائما مستوى الأسعار كأنه من رجال الأعمال العالميين وملم بكل شىء .. لم تبد منه أى حركة أو أى كلمة يخص بها سارة أو تكشف عن محاولة الاستيلاء عليها كما تعودت من كل الرجال .. وعندما انتهى العشاء وقام البكباشى عزت محروس مودعا قال لها وهو يصافحها :

ـ لقد وثقت بك كما تثق بك هدى هانم .. وسأراك كلما جاءت هدى هانم إلى لندن .

وحيته سارة وهى لا تزال فى ذهولها .. إنها مذهولة باكتشاف السر الذى كانت تبحث عنه .. وهو أن البكباشى عزت محروس هو الذى يمول صفقات هدى هانم .. يدفع ثمن ما تشتريه من لندن على أساس أن تحتفظ له بما دفعه فى مصر. لا شك أن هذا السر الأكبر لكل عمليات هدى هانم ولكن ما هى تفاصيل هذه العملية التى تتم بين عزت وهدى .. كيف تحتفظ له بأمواله فى مصر .. وكيف يتم بينهما الحساب .. هذا ما يجب أن تجرى وراءه سارة حتى تكتشفه .. ويكفى أنها قد عرفت الآن أن أى امرأة لا تستطيع أن تقيم بوتيكا يعرض مطالب النساء إلا إذا كان لها من يمولها لاستيراد هذه المطالب .. أى أنها لو أرادت أن تتحرر من ارتباطها بهدى هانم وتقيم لنفسها « بوتيكا » خاصا بها فيجب أن تبحث أولا عمن يمول لها عملية استيراد البضائع من الخارج .. وهى تتمنى فعلا أن تتحرر من

هدفها .. وأن تكون صاحبة بوتيك فى القاهرة .. إنها بذلك تستطيع أن تحقق الآن ... ولكنها يجب أن تصبر حتى تستكمل قدرتها على التحرر وعلى الانطلاق إلى الأفق الأبعد والأوسع .

وقالت لهدى كأنها تحاول أن تلهى نفسها عما يدور فى فكرها :

ـ إن البكباشى عزت محروس شخصية رائعة .. إنه جاد ويتكلم كأستاذ ..

وقاطعتها هدى كأنها تنهرها :

ـ لا تقولى عنه البكباشى .. إنه لم يعد « بكباشى » ولا يجب أن يعرف عنه هذا اللقب .. إنه رجل الأعمال عزت بيه .. أو مستر عزت ..

ثم أخذت تحدثها عن المشاريع العالمية التى يقوم بها عزت محروس ... والتى تشمل كل الدول العربية تقريبا .. إنه الآن يتحمل مسئولية إمداد حكومة ليبيا بكل ما تحتاج استيراده .. وإن كان لا يبخل على مصر ببعض عملياته رغم أنه لم يعد له أى علاقات مع المسئولين ..

وقالت سارة كأنها تطمئن هدى :

ـ إنى أتمنى أن أعمل فى خدمته .

وقالت هدى فى هدوء :

ـ لقد قال لك إنه أصبح يثق بك ويطمئن إليك ..

وقالت سارة وهى تهم أن تقبل يد هدى هانم :

ـ الفضل لثقتك بى واطمئنانك إلى ..

ووصلتا إلى غرفتهما بالفندق والساعة حوالى العاشرة مساء .. ورفعت هدى فورا سماعة التليفون وعرفت سارة أنها طلبت القاهرة .. وتحدثت طويلا بكلمات تحس سارة أنها ليست صريحة .. ثم بعد أن أنهت محادثتها مع القاهرة .. سمعتها سارة تحادث فى التليفون أشخاصا آخرين .. وتقول فى لهجة آمرة .. غدا فى الساعة التاسعة صباحا أمام مارك آند سبنسر والسفر يوم الثلاثاء .. ثم ابتعدت عن التليفون وقالت لسارة :

— إننا سنعود إلى مصر يوم الخميس .. أما الصديقات اللاتى جئن معنا فسيعدن الثلاثاء ..

ثم عادت هدى إلى التليفون تحجز مقاعد الطائرات ليومى الثلاثاء والخميس .. بعد أن قالت لسارة :

— غدا .. سيكون يوما شاقا ..

وفى صباح الغد كانت هدى وسارة أمام مدخل مارك آند سبنسر ووجدتا فى انتظارهما النساء الثلاث اللاتى جئن معهما من القاهرة .. وتبادلتا التحية معهن فى لهجة فاترة باردة ثم تقدمتهن هدى هانم إلى داخل المحل .. وصعدت بهن إلى الموظف الكبير المختص الذى انتقل بهن إلى غرفة جانبية تجمعت فيها كل البضائع التى سبق أن اشترتها هدى .. وبجانبها عدد من الحقائب الكبيرة الفارغة .. وهى حقائب من صنف راق محترم ..

وبدأت هدى بنفسها تجمع البضائع وترتبها داخل الحقائب .. حقيبة بعد حقيبة .. ولا تكلف إلا سارة بما تريد إعانتها فيه .. إلى أن انتهت من إعداد ست حقائب مزدحمة بالبضائع .. ثم التفتت إلى النساء الثلاث قائلة :

— كل منكن ستحمل حقيبتين .. ولن يغيب عن بالى ما فى كل حقيبة .. ولا تنس كل منكن أن تحمل معها أيضا حقيبتها التى تجمع فيها أشياءها الخاصة ..

وكانت هدى قد تركت كمية من المشتريات خارج الحقائب فأخذت توزع منها على النساء الثلاث .. كل منهن قطعة واحدة .. قائلة :

— كل منكن تضع هذه القطعة فى حقيبتها الخاصة لتبدو أنها اشترتها لاستعمالها الخاص .. وإذا فرضت عليها ضريبة وهى فى جمرك القاهرة فلا تجادل وتدفع فورا .. وإن كنت لا أعتقد أن أى واحدة منكن ستُطالب بدفع أى ضريبة ... وخذن الحقائب الآن .. وسأكون معكن فى المطار الساعة السادسة فى صباح يوم الثلاثاء .. السادسة تماما ..

وخرجت كل امرأة من الثلاث ووراءها أحد العاملين فى المحل يحمل لها

حقيبتين ..

وتفرغت هدى لجمع باقى المشتريات فى حقيبتين أخريين .. وبعد أن انتهت نادت على العمال ليحملوا لها الحقيبتين إلى الخارج .. وقالت سارة كأنها تحتج :

— لماذا لم نترك الصديقات الثلاث يحملن كل الحقائب معهن ..

وقالت هدى مبتسمة ابتسامة مجهدة من شدة ما بذلته من مجهود :

— ستحملين أنت هاتين الحقيبتين يوم سفرنا .. فإنى سأضع فيهما المصاغ الذى اشتريناه وأحتفظ به فى خزائننا الخاصة بالفندق .. فإنى أفضل أن يكون المصاغ معنا حتى أطمئن أكثر ..

وقالت سارة فى دهشة :

— ولماذا لا نحمل قطع المصاغ فى حقائبنا التى نحملها على أكتافنا .. حقائب اليد .. فإن وزنها خفيف ..

وتكسرت ضحكة هدى المتعبة وقالت :

— إنك مازلت فى منتهى السذاجة .. فإن أول ما يقوم رجال الجمرك بتفتيشه هى حقائب اليد الصغيرة .. وهى أسهل فى الكشف عن كل ما فيها .. لذلك فمن الأفضل أن يوضع المصاغ والقطع الغالية فى الشنط الكبيرة مع الحرص على إخفائها بين باقى ما فى الشنطة .. وإنى أذكر أنى فى مرة كنت قد اشتريت من لندن خاتما من الماس « سوليتير » وأخفيته وأنا أعود به إلى القاهرة داخل ثوب من الثياب التى جمعتها فى الحقيبة الكبيرة .. وكان مفتش الجمرك ثقيلا متشددا وأخذ يقلب فى هذه الحقيبة وأمسك بهذا الثوب ولكنه لم يكشف فيه الخاتم السوليتير .. ودفعت ضريبة على الثوب ولم أدفع شيئا على الخاتم ..

وسارة تستمع كعادتها وهى تستوعب بذكائها درسا جديدا ..

ووصلتا إلى غرفتهما بالفندق ومعهما الحقيبتان .. ورقدت هدى هانم متعبة وسارة بجانبها لا تحاول أن تتركها وهى متعبة .. وظلت هدى راقدة طوال اليوم التالى أيضا وسارة بجانبها أيضا .. تعيد إليها حيويتها برواية الحكايات .. وتزحف

يدها على جسدها تدلكها وتكبسها .. حتى بدأت تستعيد نشاطها وحيويتها ..

وفى فجر يوم الثلاثاء ذهبتا إلى المطار والتقيتا بالصديقات الثلاث .. وهدى هانم تحدق فى الحقائب التى تحيط بهن .. كأنها تستطيع أن تغوص بعينيها داخل كل شنطة وتتأكد أنها لا تنقص شيئا .. أو أن إحداها قد فتحت فى غيبتها .. ولعلها كانت قد وضعت شارة خفية على كل حقيبة بحيث تعرف من تحمل كل منها .. فإنها وهى تراجع كل حقيبة لم تكن تخطىء فى التوجه بالكلام إلى من أعطتها لها لتحملها مع أن الحقائب كانت ملقاة بلا ترتيب بعضها فى البعض ..

وقالت هدى هانم والنساء الثلاث يجتزن الحاجز إلى داخل المطار :

ـ كما هى العادة .. لا تدخلن مطار القاهرة وأنتن متلاصقات معا .. كل واحدة تبتعد عن الأخرى وتدخل كأنها وحدها .. وسيكون فى استقبالكن عادل شاهين وهو يعرفكن وأنتن تعرفنه ..

واختفت النساء الثلاث الصديقات داخل المطار .. وعادت هدى وسارة إلى لندن وجلستا فى أحد المطاعم لتتناولا طعام الإفطار .. وقالت سارة فى تساؤل طبيعى كأن من حقها أن تسأل عن أى شىء :

ـ من هو عادل شاهين الذى قلت إنه سيكون فى استقبال صديقاتنا ؟

ونظرت هدى إلى سارة كأنها تتأكد من الاطمئنان إليها وقالت :

ـ إنه مفتش فى الجمرك .. وهو صديق من أعز الأصدقاء ..

وسكتت سارة وقد فهمت درسا جديدا وصلت إليه ..

واستمرتا فى تناول الإفطار وسارة تعلم أنهما انتهيتا من الشراء ولم تعودا فى حاجة إلى التردد على محلات مارك آند سبنسر .. فأين ستأخذها هدى اليوم .. هل ستعودان إلى الطواف بالمحال التجارية .. ولكن سارة تريد أن تعود إلى محل بالذات .. المحل الذى بهرتها معروضاته حتى كادت تجن به .. وقالت فى لهجة استجداء وهى تميل على هدى كأنها تهم أن تقبلها :

ـ إنى أريد أن أذهب إلى محلات هارودز مرة ثانية .. حتى أتمتع بالجنون الذى

أصابنى عندما شاهدت معروضاته أول مرة ..

وقالت هدى وهى تحتضن سارة بابتسامتها :

ـ سأذهب معك .. لتجدى أنى معروفة ومهمة لدى كل محلات لندن حتى ولو لم أشتر منها ..

وأخذتها هدى إلى محل هارودز .. المحل الأرستقراطى الفخم .. واستقبلت بمجرد أن دخلت بترحاب واهتمام . ولم تطف بسارة بين المعروضات طويلا وصعدت إلى مكتب فى الدور العلوى .. وقالت بمجرد أن دخلت :

ـ هاللو مايكل ..

وكان أول ما التقت به عينا مايكل هو وجه سارة فقفز من جلسته وهو يصيح كأنه يصرخ :

ـ هاللو ..

ومد يده يلتقط يد سارة قبل أن يصافح هدى .. وقالت هدى بعد أن انتبه إليها وألقى عليها كلمتين وعاد كله إلى سارة :

ـ إنها صديقتى وتعمل معى ..

وصاح مايكل :

ـ إنها تحفة ..

وانطلقت ابتسامة سارة حتى آخرها .. لم تستطع أن تحتفظ بابتسامة صغيرة كما تعودت أن تواجه انبهار من تلتقى بهم من الرجال .. إنها تحس بأن مايكل شخصية تجتذب ابتسامتها حتى آخرها .. وقال وعيناه لا ترحمانها :

ـ أين كنت .. إنى أحس بأنى وكل من فى هارودز كنا فى انتظارك منذ سنوات ..

وقالت سارة من خلال صف اللؤلؤ الذى لا تزال تكشف عنه بابتسامتها :

ـ أنا أيضا كنت فى انتظار أن أزور هارودز .. ولم أكن أعرف أنى سأفاجأ ..

وقال مايكل وشفتاه تطلقان القبلات إليها وعيناه تتحسسان كل خط من وجهها :

— أى مفاجأة ..؟

وقالت وهى تضحك :

— أنت .. إنى أحس بك كمفاجأة ..

وعلا صوت هدى هانم كأنها تنهرها قائلة :

— كفى هذا الكلام السخيف .. إنى أريد أن أرى بعض المعروضات ..

وبدأت هدى تطلب .. ومايكل يتصل بالإدارة لتحمل إليه ما تريده هدى ولكنه يعرض ما يصل إليه على سارة لا على هدى .. وكل كلامه يوجهه إلى سارة حتى ردا على أسئلة هدى .. كأنه لا يحس بوجودها .. وكان كل ما يهم هدى هو أن تسأل عن الأسعار .. خمسمائة استرليني .. ألف استرليني .. خمسة آلاف استرليني .. وترفع صوتها بهذه الأرقام كأنها تتعمد أن تقذف بها فى أذن سارة .. لا شىء فى مستوى أسعار محل مارك آند سبنسر .. لا شىء يمكن أن تحتمله سوق القاهرة .. وقد بدأت تضيق بتركيز مايكل لكل اهتمامه على سارة .. لا شك أنه موظف مدلل حتى يستهين بتقاليد معاملة الزبائن .. وقد انطلق مايكل قائلا فجأة وهو يوجه كلامه إلى الاثنتين وإن كانت عيناه لا تزالان مركزتين على وجه سارة وصف اللؤلؤ الذى تبتسم به :

— إن الساعة الثانية عشرة .. هل يمكن أن تشرفانى بتناول الغداء معى إلى أن نعود إلى مكتبى ..؟

وهبت هدى هانم واقفة وهى تقول فى حدة كأنها تقذف بكلماتها فى وجهه :

— لا .. متشكرين وآسفين .. فإننا مرتبطتان بموعد الغداء ..

وشدت سارة وراءها كأنها تختلعها من على الأرض .. وصاح مايكل وراءها وهما خارجتان :

— ما هو العنوان ..؟

وصاحت هدى دون أن تلتفت إليه :

— ستعرفه عندما نحتاج إليك ..

وركبتا سيارة أجرة لتحملهما إلى الفندق وهدى تردد :

— إنه مجنون .. لم أكن أعرف أن مايكل مجنون إلى هذا الحد ..

وسارة صامتة .. وابتسامتها لا تزال تكشف عن صف اللؤلؤ بين شفتيها .. إنها لا تعتقد أن مايكل مجنون .. ولكنه منطلق .. صريح فى انطلاقه .. ودمه خفيف إلى حد أن من السهل أن تقع فيه ..

قضت سارة يومها وهى لا تستطيع أن تكف عن استعادتها لصورة مايكل الضاحكة وكلماته التى يبدو أنه لا يختارها مراعاة لمن يسمعها ..

وفى نفس المساء اتصلت هدى هانم بالقاهرة بالتليفون .. وسمعت سارة الكلمات التى تنقصها الصراحة حتى تفهمها.. وبعد أن أنهت محادثتها التفتت إلى سارة وقالت لها وهى تنفث كلماتها فى ضيق :

— لن نعود إلى مصر يوم الخميس ... سنعود السبت .

وانطلقت سارة متسائلة فى دهشة :

— لماذا ؟

وجدت هدى وهى تطلق أنفاسها زافرة كأنها تتخلص من ثقل على صدرها :

— لقد أصبح من حقك أن تعرفى كل شىء .. إنى لا أستطيع أن أجتاز جمرك القاهرة إلا وأنا مطمئنة .. ولا يطمئننى إلا أن يكون عادل شاهين هو الذى يتلقى الحقائب ويتعامل معى .. وقد تغير موعد نوباتجيته فى جمرك المطار من الخميس إلى السبت .. وقد طمأننى أنه استقبل صديقاتنا الثلاث اليوم ..

وسكتت سارة مستسلمة ولكنها أحست كأنها طارت من الفرحة .. لقد أصبح أمامها ثلاثة أيام تقضيها فى لندن .. وهى تريد أن تعود وترى مايكل .. سترى مايكل ..

الحلقة الثالثة

وظلت سارة تفكر فى كيف تقنع هدى هانم بأن تذهب إلى محلات هارودز مرة أخرى لترى مايكل .. بل إنها تريد أن تذهب إلى هناك وحدها .. وهى تشعر بأن كل آمالها قد أصبحت متعلقة بمايكل .. وليس معنى ذلك أنها أحبته من أول نظرة .. إن ما يمكن أن يعتبر حبا بين رجل وامرأة لا يخطر على بالها ولا يحرك عواطفها أبدا .. وهى قد تعودت على أن ينبهر الرجال برؤياها فلم يفاجئها مايكل بانبهاره .. ولكن انبهاره حرك ذكاءها إلى أمل جديد من آمالها البعيدة .. فهو موظف كبير فى محلات هارودز يتولى شئون التجارة الخارجية والتعامل مع مستوردى البضائع ليبيعها فى الخارج .. ولو استطاعت أن تكتسبه فإنها يمكن أن تستغله فى الوصول إلى شراء بضائع من محلات هارودز تبيعها لحسابها فى القاهرة .. وتستطيع بذلك أن تفتح السوق الغالية للبضائع الغالية .. وهى السوق التى لا تعترف هدى هانم بوجودها فى مصر وتصر على شراء البضائع الرخيصة من محلات مارك آند سبنسر .. وهى جاهلة .. إن القاهرة لا تزال تجمع أصحاب الملايين رغم كل القيود المفروضة على أرزاق الناس .. وتستطيع أن تصل إلى زبائن من أصحاب الملايين .. وكل زبون يساوى عشرة من الزبائن الذين يتعاملون مع بوتيك هدى هانم .. إلى أن تصبح الأخرى صاحبة ملايين .

وفى صباح اليوم التالى أخذت سارة تبذل كل ما تستطيعه فى التودد إلى هدى هانم وتدليلها والانحداف عليها حتى تصل إلى إقناعها بأن تتركها اليوم وحدها ساعات .. ولكن هدى هانم أغنتها عن الاستمرار فى مجهودها عندما قالت لها إنها ستتركها اليوم لتتناول الغداء مع السيد عزت المحروس ..

البكباشى عزت المحروس الذى أصبحت سارة متأكدة بأنه هو الذى يمول كل العمليات التجارية التى تقوم بها هدى فى لندن .. وفى هذه المرة رددت هدى هانم اسمه صراحة .. ربما بعد أن عرفت سارة به فى لقاء تناول العشاء .. وربما لأن كليهما .. أى هدى وعزت المحروس .. قررا أن يستعينا بسارة فى أداء مطالب عملياتهما ..

وفى الساعة الحادية عشرة أصبحت سارة وحدها .. وتلكأت فى شوارع لندن حتى الساعة الثانية عشرة إلا الربع .. ودخلت محل هارودز .. وصعدت إلى مكتب مايكل .. وبمجرد أن أبلغته السكرتيرة باسم الزائرة فتح الباب بنفسه .. ورأته أمامها يشدها إلى داخل مكتبه وهو يقول بفرحة صاخبة وعيناه اللهفان كان ملامح وجهها :

ــ لقد كدت أيأس من رؤيتك ..

وقالت وصف اللؤلؤ يلمع فى سحابة لونها الأسمر الداكن :

ــ هل مازلت مصراً على دعوتى للغداء ..

وصاح ضاحكا :

ــ طبعا .. وأتمنى أن يمتد الغداء حتى الإفطار ..

وكان حول مكتبه مجموعة من الأفراد .. بعض الزبائن .. فأجلسها على مقعد منزو .. قائلا :

ــ خمس دقائق فقط ..

وعاد إلى الزبائن .. وجلست تحملق فيه من بعيد .. إنه ليس مجرد رجل وسيم وسامة الرجال .. إنه جميل جمالا يمكن أن يعتز به الرجال والنساء .. وشعره الأشقر يتدلى فوق جبينه ويغطى من الخلف كل قفاه .. ولونه أبيض فاتح كلون النهار المشرق وتنطلق على وجنتيه حمرة كأنها ترسم له وردتين .. وقوامه رفيع كقوامها وربما أرفع وهو طويل وهى ليست قصيرة ولكنها تتصور أنها محتاجة لأن ترفع ذراعيها حتى آخرهما لتضع كفيها على كتفيه .. وهو

بقوامه الرفيع الطويل يتمايل حتى فى جلسته كأنه يحمى نفسه من سقوط نصفه الأعلى على نصفه الأسفل .. وهو يتحدث إلى الزبائن بصوت رفيع وابتسامة دائمة .. ولا تدرى هل هذه الابتسامة تعبر عن فرحته بحضورها إليه أم أن هذه هى طبيعته .. على كل حال فهو يبدو حتى من بعيد كأنه رجل شاذ .. ولا يهمها شذوذه .. إنها فى حاجة إليه ..

ومضت الدقائق الخمس .. والتقطته وهو يعتذر للزبائن قبل أن يعتذروا له .. كأنه يطردهم .. وقفز إليها صائحا فى لهجة ضاحكة

ـــ كلى لك .. وسأحاول أن تكونى كلك لى ..

وخرج بها من غرفة المكتب وصعدا إلى الدور العلوى من المحل ودخلا إلى صالة واسعة فخمة معدة ليتناول فيها طعام الغداء .. وانزويا حول مائدة صغيرة بجانب نافذة واسعة تطل على صورة لندن كلها .. وقالت بسرعة كأنها تتعمد أن تكون هى التى تبدأ بالكلام حتى تسيطر على الجلسة :

ـــ من أنت ؟

وقال ضاحكا :

ـــ لا أدرى من أنا .. واسمى المكتوب هو مايكل ستيوارث رمنجتون .. وقد وجدت نفسى منذ البداية أعمل فى محلات هارودز .. لا لأنى اخترت ولكن لأنى أعيش فى مجتمع هارودز .. وأحب عملى ولكنى أحس أحيانا أنى أريد أن أطير إلى السماء .. أو أهبط فى أعماق الأرض .. أريد أن أعيش حياة أخرى ..

وظلت تسأله وتجره للحديث عن عائلته وأمه وأبيه حتى سألته عن أصدقائه .. وقال ضاحكا :

ـــ نحن ثلاثة لا نفترق .. وإذا أردت أن تعرفينى فيجب أن تعرفينا نحن الثلاثة .. ثم كأنه تنبه إلى أنه يجيب على أسئلتها دون أن يبدأ هو بالسؤال .. فقاطعها قائلا :

ـــ ولكن أنت .. من أنت ؟

وروت له حياتها رواية مختصرة منذ وعت الحياة بعد وفاة والدها وعاشت مع أمها وإخوتها .. أختان وأخ .. وهى تحاول أن تكون شخصية تهتم بالحياة .. وكيف التحقت بالجامعة الأمريكية فى القاهرة على أمل أن تسافر إلى أمريكا وقد تقيم هناك .. إلى أن التقت صدفة بهدى هانم وتفرغت للعمل معها فى بوتيك يبيع احتياجات النساء ..

وقاطعها قائلا :

ـــ إنك تتحدثين الإنجليزية بطلاقة حتى خيل إلى أنك تعيشين معنا .. أو أنك ترددين علينا كثيرا .. وقالت من خلال ابتسامتها :

ـــ إنى مغرمة باللغة الإنجليزية منذ صباى .. ولم أقض فى الجامعة الأمريكية سوى عام واحد ، ورغم ذلك فإنى أجيد الحديث بالإنجليزية .. ولم أتمتع بالإنجليزية إلا فى لندن .. وهذه أول مرة أدخل فيها لندن .. وأجمل ما فى لندن هى محلات هارودز ..

وقال ضاحكا وهو يمد يده إلى يدها :

ـــ وطبعا أجمل ما فى هارودز هو أنا ..

وقالت كأنها تقبله بابتسامتها بعد أن أبعدت يدها عن يده :

ـــ سأكون صريحة معك .. لقد ذهلت بما رأيته فى هارودز من معروضات وتمنيت أن أحمل بعضها معى إلى القاهرة لأعرضها هناك .. ولكن هدى هانم هى صاحبة البوتيك وأنا لست أكثر من موظفة فيه وهى ترفض أن تحمل شيئا معها من هارودز لحسابى الخاص .. ولكنى لا أدرى كيف .. هل تستطيع أن تدلنى وتأخذ بيدى نحو تحقيق آمالى ..

وقال مايكل فى بساطة :

ـــ يكفى أن يكون لك رصيد فى بنك إنجليزى يضمنك لدى إدارة محلات هارودز ..

وقالت ساخرة من نفسها :

ــ ليس لدى أى رصيد فى أى بنك إنجليزى .. وحتى ما أملكه فى بنوك القاهرة لا يكفى لأى ضمان ..

وابتعد عنها مايكل مستندا على ظهر مقعده .. وتعقدت عيناه كأنه اكتشف أنها تريد أن تستغله .. وقال بصوته الرفيع فى لهجة أكثر جدية وإن كانت ابتسامته لا تزال بين شفتيه :

ــ إنى لا أستطيع أن أضمنك لدى الإدارة .. إن إمكاناتى لا تكفى لقبول أى ضمان منى ..

وتنهدت سارة فى حسرة وقالت ورأسها يسقط على صدرها :

ــ أى لا أمل ..

وسكت مايكل لحظة ثم عادت عيناه تلمعان ويعود ويقترب بهما من سارة قائلا :

ــ هناك طريق آخر .. فإنك تستطيعين أن تكونى سمسارة لمحلات هارودز .. أى تجذبى المشترين إليها .. ولندن مزدحمة بالمشترين العرب .. بل أصبح العرب هم أهم المشترين .. إنهم يشترون بملايين الجنيهات .. وكل مشتر تأتين به يكون لك الحق فى أن تأخذى من الإدارة عشرة فى المائة من قيمة المبلغ الذى اشترى به .. وفى شهور قليلة تجمعين ما يكفى لضمان ما تأخذينه أنت للاتجار به فى القاهرة .. وإنى أستطيع أن أسجل اسمك لدى الإدارة كسمسارة ..

وسارة تكاد تشهق أمام عالم جديد تفاجأ به ولم تكن تعرفه ولكنها عادت وابتلعت شهقتها وقالت فى يأس :

ــ هذا معناه أن أبقى مقيمة فى لندن ..

وقال مايكل كأنه يتعجب :

ــ ولماذا لا تقيمين فى لندن ..

وردت سارة وهى تبتسم ساخرة من نفسها :

ــ لا أستطيع .. إنى أولا مرتبطة بالقاهرة .. ثانيا لا أملك ما أعتمد عليه فى لندن .

وقال وعيناه تقتربان منها أكثر وتمسحان على وجهها فى رفق :

ــ إنى أستطيع أن أوفر لك إقامتك فى لندن .. وأستكمل لك كل أوراق تمديد إقامتك ..

وقالت فى دهشة :

ــ كيف ؟

وقال وهو قد وصل بيده إلى يدها ويضغط عليها :

ــ بأن نتزوج .

وارتعشت سارة فى جلستها واتسعت عيناها حتى آخرها وتركت يدها وكأنها لا تحس بها فى يده .. وقالت كأنها فزعة

ــ ماذا تقول ؟

وقال كأنه يعزف بصوته الرفيع لحنا :

ــ إنى أعرض عليك الزواج .. ولا شك أنك اقتنعت بأنى أريدك رغم أنه لم يمض على لقائنا إلا ساعات .. ونستطيع أن نبدأ فى اتخاذ الإجراءات من الآن .. إن كلا منا يكمل الآخر .. أبيض وأسمر .. وعربى وإنجليزى .. وواقع وخيال .. وكلانا تائه فى هذه الحياة يبحث عن مكان يأوى إليه ..

واسترددت سارة هدوء شخصيتها وهى تنظر إليه كأنها تعيد فحصه .. إنه أول رجل يطلب منها الزواج بمجرد رؤياها .. ولا يكتفى بمجرد اشتهائها .. ولم تحاول أن تكتشف مدى تعلقها بشكله .. ورضائها عن هذا الشذوذ الذى يبدو به .. يكفى أنه يطلب منها الزواج .. وقالت وهى تتحسس بأصابعها يده التى لا تزال ممسكة بيدها :

ــ إنها مفاجأة لم تخطر على بالى .. وأعتقد أنى فى حاجة أن أفكر قبل أن أقدم .. إن كل حياتى فى القاهرة فكيف أسحبها من هناك .. ثم إنى فى حاجة إلى

مدة قد تكون شهورا حتى أتأكد من أنك لا تعرض الزواج كمجرد نزوة طارئة وليست بناء ثابتا ..

وهم مايكل أن يتكلم ولكن كأنه أفاق على شيء قد نسيه وأطل فى ساعته .. لقد وصلت الساعة إلى الثالثة .. لقد أهمل موعد استئناف عمله .. وقال وهو يبتسم كأنه يخفف من لوم نفسه :

ــ لقد أهملت العودة إلى العمل .. سأعتذر وأعتبر نفسى فى إجازة ونقضى بقية اليوم معا ..

وقام ليتحدث فى التليفون ..

وسارة أيضا كانت كأنها أفاقت وتذكرت هدى هانم .. لقد تأخرت عليها .. ثم كيف تقضى بقية اليوم مع مايكل .. فماذا تقول لهدى .. واستجمعت كل ذكائها واستغرقت فيه .. ثم قامت إلى التليفون تحادث هدى هانم فى الفندق وقالت لها وهى تفتعل لهجة مرحة :

ــ لقد التقيت صدفة بشرين صديقتى التى كانت زميلتى فى الجامعة الأمريكية .. وهى تصر على أن أبقى معها حتى تناول العشاء .. أرجو أن تسمحى لى .. إنى فرحة جدا بلقاء صديقتى ..

وقالت لها هدى فى صوت جاف :

ــ هل أصدقك ..؟

وقالت سارة فى صوت مفتعل الضحك :

ــ ومتى لم تصدقينى يا هدى هانم ..؟

وقالت هدى فى استسلام :

ــ إنى أحس كأن من الصعب تصديقك هذه المرة .. ولكنى سأستسلم لك بشرط ألا تتأخرى ..

وقالت سارة وهى لا تزال تفتعل انطلاقها :

ــ إنى لا أستطيع أن أتأخر عنك ..

وعادت إلى مايكل وهى تقول لنفسها إنها يجب أن تستمر فى المغامرة ما دامت المغامرة قد وصلت إلى أن عرض عليها الزواج ..

وقال لها مايكل وقد عادت إليه :

ــ لنقضى ساعة فى هايد بارك إلى أن تحين الساعة التى ألتقى فيها بأصدقائى لأقدمهم إليك .. وتعرفيهم وتعرفينى ..

وخرج بها إلى حديقة هايد بارك .. وقضيا ساعتين فوق الحشائش وبين الأشجار وألقيا بنفسهما فوق مقعدين يستأجرانهما .. وسارة لا تحدثه ولا تسأله عن الزواج .. ولكنها لا تكف عن الحديث والسؤال عن عمل سمسارة الزبائن فى محلات لندن .. إنه عمل لم تكن تعرفه و لم يخطر على بالها أبدا .. ومايكل نفسه لا يعود إلى الحديث عن الزواج .. ولكن كل ما فيه يفيض بالسعادة وهى بجانبه .. لعل الزواج بين الإنجليز هو مجرد عملية تدفع إليها الحاجة .. حاجة العروس وحاجة العريس .. وهو فى حاجة إليها ويريدها أن تبقى بجانبه فى لندن ولم يجد ما يكفل لها حق الإقامة معه من ناحية الإجراءات الرسمية إلا أن يتزوجها .. إن الزواج بين الإنجليز ليس له معنى ولا أهداف ولا ضجة الزواج فى مصر .. إنه زواج لا يقيم حياة جديدة ولكنها مجرد إجراء لاجتياز حالة يمر بها الرجل والمرأة .. بل إن الزواج لا يضيف أى شيء جديد عليهما .. فكل شيء مباح بلا زواج .. ولكن قد تحمل المرأة وتحس أنها تريد أن تكون أما .. وقد يتجاوب الرجل معها ويحس هو الآخر بأنه يريد أن يكون أبا .. فيتزوجان من أجل استقبال المولود لبناء حياة جديدة .. وهو قد عرض عليها الزواج فقط لتبقى بجانبه فى لندن .. فهل هى تريد أن تبقى فى لندن .. إنها حتى الآن لا تستطيع أن تقرر ما تريد ..

وكانت الساعة قد بلغت السادسة عندما قرر أن يصحبها إلى أصدقائه .. إنهم يلتقون كل يوم فى السادسة ليجمعهم الكأس .. و لم تتردد سارة .. لا يمكن أن يكون مايكل يحاول أن يشدها إلى مكان يختلى بها فيه ليستولى عليها .. إنها منذ

التقت به ورغم إطلاقه لعواطفه إلا أنه لم يحاول أى شىء .. حتى مجرد قبلة .. كأنه تنقصه دوافع غريزة الرجولة رغم أنه يغازلها .. أو لعله رجل لا يتحرك نحو امرأة إلا باتفاق الطرفين وإرادتهما المشتركة .. ماذا يريد كل منهما .. وقد يكون هو يريدها كلها .. ولكنها لم تتجاوب معه بعد وتشعره بأنها تريده .. فلينتظر إلى أن تريده .. وعلى كل حال فقد قدرت منذ البداية أنه لا شك رجل شاذ ..

ودخل بها إلى شقة فى إحدى العمارات .. وعيناها تتحركان فى تعجب بين أصدقائه الثلاثة .. إن كلا منهم يكاد يكون صورة من الآخر .. كل منهم ليس مجرد رجل وسيم ولكنه رجل جميل هذا النوع من الجمال الناعم الذى يمكن أن يتمناه النساء .. وكل منهم يفيض ليونة وميوعة .. وكل منهم معه امرأة غريبة عن المجتمع الإنجليزى .. إحداهن عرفت أنها من أندونيسيا .. والثانية يابانية .. والثالثة .. زنجية ربما كانت أفريقية أو أمريكية .. ولعل مايكل وقع بين يديها لأنها هى الأخرى غريبة عن المجتمع الإنجليزى بسمارها الداكن .. إنها شلة كل أفرادها من الشواذ وكل ما يحيط بها شاذ .. وقد استقبلوها فى بساطة وبلا اهتمام كأنهم لا يرون شيئا جديدا ..

والمرج الصاخب منطلق مع الكئوس .. وبينهم من يتنطط راقصا .. وآخر يطلق صوته بالغناء .. والثالث ملقى فى أحضان صديقته .. وسارة لم تقبل أن تشرب أى كأس .. إنها لا تشرب الخمر .. ولكنها لا تقاوم هذا المرج الذى يدور حولها ولا تحاول أن تظهر امتعاضها وتنأى بنفسها عنه .. ولكنها بدأت تصرخ وتهرج هى الأخرى .. رغم أنها تفتعل هذا الصراخ والمرج وليست منطلقة كلها فيه .. وقد قامت الفتاة الأندونيسية ورقصت رقصة من رقصاتها الوطنية وهم يهللون ويصفقون .. وما كادت تنتهى حتى قامت سارة ترقص هى الأخرى رقصة بلدية مصرية وهى تصفق بيديها كأنها تلقنهم نغمات الرقصة ليصفقوا معها .. وقد ازدادوا تهليلا وهم يتفرجون على فن جديد غريب عليهم .. وبعد أن انتهت من رقصتها قام مايكل يهتز مقلدا لها .. ولكن اهتزازاته كانت فى

الميوعة والخلاعة حتى لم تطقها سارة وتستطيع أن تتحمل استمرارها صاحت فى وجهه كأنها تشتمه وتنهره :

— لا ترقص هذه الرقصة إلا بعد أن تتعلم أصولها ..

وتوقف مايكل عن الاهتزاز فورا وقال كأنه تلقى أمرا من أمه :

— حاضر ..

وكان قد عودها منذ التقت به أن يطيع ويستجيب لأوامرها .. حتى إنه وهما يتناولان الغداء كان يسبقها فى التهام الطعام فقالت له فى لهجة كأنها لهجة آمره :

— إنك تمضغ الطعام بسرعة .. هذا مضر بصحتك .. امضغ على مهلك ..

وقال ساعتها فى استسلام :

— حاضر ..

وبدأ يهدأ فعلا فى مضغ الطعام ولا يرفع شيئا إلى شفتيه إلا مع سارة وهى ترفع يدها بالطعام إلى شفتيها ..

لقد مر على سارة إحساس بأنها قوية بالنسبة لمايكل .. كأنها هى الرجل وهو المرأة ..

وقد وصلت الساعة إلى التاسعة وسارة لم تفكر فى العودة إلى هدى هانم .. ولكن أحدهم صاح :

— هذا يكفى .. انتهت السهرة ..

إن الإنجليز لا يطيلون السهرات ..

إنهم حريصون على أن يناموا الليل ويعيشوا النهار وليسوا كما نحن فى مصر ننام النهار ونعيش الليل ..

وقال مايكل وهما فى سيارة أجرة تتجه إلى الفندق حيث تقيم سارة :

— سأراك غدا ..

وقالت سارة وهى تتنهد كأنها تعلن حسرتها :

— مستحيل أن تسمح لى هدى هانم بهذه الحرية غدا أيضا ..

وقال مايكل فى رنة إلحاح :

ــ بعد غد ..

وقالت من خلال ابتسامة حزينة :

ــ بعد غد سأكون فى القاهرة ..

وانطلق مايكل كأنه مذعور :

ــ إذن كيف نلتقى .. ومتى أسمع رأيك فى موضوع الزواج ..؟

وقالت وهى تضمه بعينيها :

ــ سننتظر أكثر .. واكتب لى وأكتب لك .. وقد أعود إليك وقد تأتى إلى مادمنا نعيش فى ذكريات لقائنا ..

وأخرجت من حقيبتها ورقة وقلما وكتبت له عنوانها .. وهى تقول :

ــ اكتب لى عنوانك فى خطابك الأول .. فإنى لن أكتب لك إلا إذا كتبت لى ..

وكانت السيارة قد وقفت بهما أمام الفندق .. ومالت عليه وقبلته قبلة سريعة على وجنته التى تحمل احمرار الورد .. وقالت كأنها تأمر :

ــ لا تنزل من السيارة ..

وجرت داخل الفندق وصعدت إلى الغرفة واستقبلتها هدى هانم صامتة وهى مكومة على المقعد كأن برودها يثقلها .. وأخذت سارة تروى لها حكاية خيالية طويلة كاذبة عما كانت فيه وما شاهدته مع صديقتها التى كانت زميلة لها فى الجامعة الأمريكية .. ولا يبدو على هدى هانم أنها تستمع .. فقط ظلت عيناها معلقتين بها كأنها لا تصدقها ولا تريد أن تكذبها .. وسارة مصممة على ألا تقول لها شيئا مما كانت فيه .. إنها لم تكن فى خدمة هدى هانم ولكنها كانت فى خدمة نفسها ..

ورقدت سارة فى فراشها وكل ما فى عقلها يدوى بأفكارها وخواطرها .. ولم يكن يخطر على فكرها شىء من موضوع الزواج بمايكل .. ولكن كل فكرها كان

منحصرا فى موضوع العمل كسمسارة زبائن لمحلات هارودز .. إنها تتقاضى فعلا نسبة من ثمن المبيعات التى تبيعها فى بوتيك هدى هانم علاوة على راتبها كموظفة .. ولكنها نسبة لا تتجاوز الواحد فى المائة .. فى حين أن مايكل قال لها إن محلات هارودز تدفع سمسرة نسبة عشرة فى المائة مما يباع .. ولن تكون موظفة فى هارودز .. إنها سمسارة حرة يمكن أن تتعامل مع كل محلات لندن وتقبض عمولة على كل ما تبيعه عن طريقها .. ولكن كيف تتعامل مع هذه المحال .. وكيف تصل إلى الزبائن الذين يشترون .. وكيف تقيم فى لندن .. إنها خواطر تنطلق من أفق بعيد .. بعيد جدا .. فهل تستطيع أن تصل إلى هذا الأفق .. وكانت تقفز أمامها صورة مايكل .. وتبتسم وهى تتنهد .. إنه شاذ .. فى منتهى الشذوذ .. ولكنها فى حاجة إليه لو حاولت أن تحقق أحلامها وتصل إلى الأفق البعيد ..

وفى صباح اليوم التالى تركت سارة هدى هانم تعيد ترتيب الحقائب التى سيسافران بها إلى مصر وقالت لها إنها ستنتظرها فى بهو الفندق إلى أن تأتى إليها لتتناولا الغداء وتطوفا بالشوارع كما هى العادة .. ودخلت سارة المصعد الذى نزل بها إلى البهو .. ووجدت أمامها ثلاثا من النساء ومن الواضح أنهن عربيات .. ولا شك أنهن فى منتهى الثراء ثراء البترول .. ويعبرن عنه بقطع الماس التى يحملنها فوق أصابعهن وبكثرة الحلى الذى يتدلى من رقابهن ويبرق على ألوانهن .. وهى تعرف أن الفندق يضم عددا كبيرا من النزلاء العرب .. رجالا ونساء وأطفالا .. ولكنها لم تكن تهتم بالتعرف إليهم .. فلم يكن هناك ما تسعى إلى اكتسابه من ورائهم .. علاوة على أنها لا تطيق ثقل النساء العربيات وجهلهن وتظاهرهن الساذج بثرائهن .. ولكنها فى هذا اليوم تحرك فيها الأمل الجديد .. وأطلقت عليهن ابتسامتها الحلوة التى تبرق بصف اللؤلؤ وقالت كأنها تقبل الوجنات :

ــ صباح الخير ..

وكأنهن فرحن بلقاء امرأة تنطق بالعربية فانطلقن يرددن التحية فرحات ولم يتوقفن عن الكلام .. ودعتها كبراهن إلى الجلوس معهن فى بهو الفندق لتناول فنجان قهوة عربية .. إن الفندق يقدم القهوة العربية خصيصا لهن .. وفرحت سارة بالدعوة وإن كانت قد لاحظت أنهن أجلسنها على طرف جانبى منهن وليس فى الصدارة كما يفرض الترحيب بأى ضيف .. لعلهن تعودن على معاملة اللون الأسمر الداكن .. لونها .. معاملة الجوارى .. ولم تهتم سارة حتى لو اعتبرنها جارية .. وانطلق الكلام بينهن وكله حول معروضات لندن ومشتريات لندن .. وسارة تتعمد أن تقنعهن بأنها خبيرة بكل ما يباع بلندن .. وتردد عليهن أوصافا وأسماء لم يسمعن عنها من قبل .. إلى أن قالت كبراهن :

— إن ما يحيرنى هو أنى أبحث عن معطف من الفراء .. وإلى الآن لم أجد ما يعجبنى .. وصاحت سارة :

— إنى أعلم أين تجدين أرق وأجمل أنواع الفراء فى لندن بل فى العالم كله ..

وقالت المرأة فى لهفة :

— أين ؟

وقالت سارة مندفعة :

— فى محلات هارودز .. إنى سأمر عليها الآن ومستعدة أن أكون معك ..

وقالت السيدة فى فرح كأنها طفلة وجدت لعبة جديدة :

— هيا بنا ..

ووقفن يتأهبن للخروج من الفندق .. وسارة تجد أنها يجب أن تحادث هدى هانم فى التليفون قبل أن تخرج .. ولكنها فوجئت بهدى هانم وقد نزلت إليهن وأقبلت عليهن .. وقدمتها سارة إليهن مع التفخيم الكبير فى الصفات التى تقدمها بها .. وقد استقبلتها النساء العربيات فعلا باحترام كبير .. ربما لأن هدى ليست سمراء هذا السمار الداكن الذى يضعها لديهن فى مستوى الجوارى .. وقالت سارة لهدى إنها اتفقت معهن على أن تأخذهن إلى محلات هارودز ثم عرضت عليها

أن تأكل معهن .. ولكن هدى هانم اعتذرت بأنها متعبة وستبقى مستريحة إلى أن يعدن إليها .. وألقت نفسها على مقعد وهى تتبعهن بعينين متعلقتين كأنها تبحث عما تهم سارة أن تفعله معهن أو بهن ..

وكان فى انتظارهن خارج الفندق سيارة مرسيدس فخمة دخلت إليها النساء الثلاث وقفزت سارة لتجلس بجانب السائق .. إنها تحس بأنها فى مهمة تفرض عليها التواضع أمام الزبون ..

وفى داخل هارودز صحبتهن فورا إلى جناح بيع الفراء وأخذن يقلبن طويلا المعروضات وسارة تشرح لهن قيمة كل قطعة حتى لو اضطرت أن تدعى معرفتها بما لا تعرفه .. وهى تتكلم بالعربية .. والباعة الذين ازدحموا حولهن لا يفهمون ما تقول حتى يصححوا من معلوماتها .. إلى أن رفعت معطفا من الفراء وصاحت : هذا أروع ما شاهدته من فراء فى حياتى .. إن كله من فراء الفيزون أو المنك .. إنه كنز يرتفع ثمنه كل يوم عن الآخر .. وألبست المعطف للسيدة العربية .. وصاحت :

— لقد ازداد روعة وهو عليك ..

وانبهرت السيدة العربية بالمعطف أيضا .. ربما كان انبهارها بتأثير الإقناع الذى تصبه عليها سارة .. وسألن عن الثمن .. أربعة آلاف استرلينى .. وترجمت سارة الرقم إلى السيدة العربية .. وهى تقول لها إن هذا المعطف سيساوى بعد شهر واحد خمسة آلاف .. وفى بساطة فتحت السيدة حقيبتها وأخرجت دفتر شيكات وناولت سارة وهى تقول لها فى فرحة :

— اكتبى الشيك لأوقعه ..

وأعدت سارة الشيك ووقعته السيدة العربية وكأنها لا تهتم بما توقع عليه .. وصحبتها سارة إلى الموظف المختص وأعطته الشيك ثم سألت السيدة عن اسمها ورقم غرفتها فى الفندق وسجلت فى ورقة أخرى تركتها للموظف .. وهى تقول :

— إنهم سيرسلون إليك المعطف فى الفندق .. أم تفضلين أن تأخذيه معك ..

وقالت السيدة فى بساطة :

— ليرسلوه إلى ..

وقبل أن تتفقا .. كتبت سارة ورقة أخرى كتبت عليها اسمها وناولته للموظف وهى تقول هامسة :

— هذا اسمى .. واحتفظ به فقد أكون فى حاجة إليك ..

والنساء يردن أن يطفن بباق أجنحة المحل بعد أن انتهين من شراء الفراء .. وقالت سارة إنها آسفة لأنها مضطرة أن تسأل عن صحة صديقتها التى تركتها فى الفندق .. ثم استأذنت فى الابتعاد عنهن لتحادث صديقتها بالتليفون .. وابتعدت كأنها تجرى وصعدت إلى مكتب مايكل .. وفتحت الباب دون أن تهتم باستئذان السكرتيرة .. وقفز مايكل من بين زبائنه يستقبلها وهو يصيح فى دهشة ضاحكة :

— إن أجمل ما فيك هو المفاجآت ..

وقالت فورا وهى تترك يديها بين يديه :

— لقد حققت أول عملية مع محلات هارودز .. لقد جئت بسيدة عربية اشترت فراء بأربعة آلاف استرلينى ..

وقال مايكل وهو يشدها كأنه يضمها :

— رائع ..

وقالت وأنفاسها تنهج متلاحقة :

— كيف أحصل على نصيبى من العمولة ..؟

وقال مايكل وكأنه صدم بما لم يخطر على باله .. وقال فى لهجة جادة وقد ترك يديها وسحب يديه منها :

— ولكن الإدارة لم تتفق معك بعد ..

وقالت فى حدة وعصبية :

— ولكنى حققت عملية وأصبح لى نصيب فيها ..

وعادت الابتسامة إلى شفتى مايكل .. وعاد والتقط يدها والتفت إلى الزبائن مستأذنا ثم خرج بها من المكتب ودخل بها إلى مكتب آخر .. وكان يقول إنه يعرف سارة وإنه هو الذى كلفها بأن تخدم المحل باجتذاب المشترين العرب .. ووصل موظفو الإدارة إلى حد أن صحبوها ليشهد البائع على أنها كانت مع المشترين .. ثم إلى الموظف الذى أخذ الشيك ليجدوا اسمها معه .. وبعد كل ذلك صرفوا لها مبلغ أربعمائة جنيه استرلينى .. نسبة نصيبها من صفقة البيع ..

وقال لها مايكل وهى تلم فى يدها المبلغ الذى أصبح من نصيبها :

— لقد كانت أمنيتى أن أختار لك هدية .. ولكنك أنت التى وصلت إلى هذه الهدية ..

وصاحت سارة :

— إنها ليست هدية .. إنه حقى فى عملية قمت بها ..

ونظر إليها مايكل نظرة إعجاب بقدرتها على الوصول إلى حقها وقال :

— وهل سأراك الليلة ..

وقالت وهى تلتقط يده وتحتضنها فى يدها :

— سأنتظر خطابك .. وإنى متأكدة أنى لن أستطيع الاستغناء عنك أبدا ..

وابتعدت عنه كأنها طائر يختفى بين الضباب .. وأخذت تبحث بين أجنحة المحل عن النساء العربيات إلى أن وجدتهن حائرات لا يستطعن تحديد ما يشترين .. وكانت تستطيع أن تبقى معهن لتدفعهن إلى شراء أكثر لتأخذ نصيبا أكبر .. ولكن لا .. إن ما وصلت إليه يكفى فى تجربتها الأولى .. وقالت لهن معتذرة إنها وجدت صديقتها التى حدثتها فى التليفون متعبة ويجب أن تعود إليها .. فقررت النساء الثلاث أن يعدن معها إلى الفندق .. وأبلغنها أنهن أصبحن لا يطمئنن إلى الشراء إلا وهى معهن .. ولكنها آسفة .. إنها ستعود إلى مصر فى الصباح التالى .. وكتبت لهن وهن فى السيارة اسمها .. وعنوانها فى مصر وهى

ترحب باستقبالهن هناك أن يكلفنها بكل ما يردن .. وفى هذه المرة كانت تجلس بجانبهن داخل السيارة وليس بجانب السائق .. لقد زالت الكلفة بينها وبينهن .. وأسرتهن بصف الدرر الذى تكشف عنه ابتسامتها .. وبكلماتها المرحة المقنعة التى ينطلق بها ذكاؤها ..

وقد عادت إلى الفندق متأخرة عن موعد الغداء .. ووجدت هدى هانم فى الغرفة وقد تناولت غداءها .. وكانت قد قررت أن تروى لها ما وصلت إليه .. إنه عمل وهى مشتركة معها حتى اليوم فى كل أعمالها .. ومدت لها يدها بالجنيهات التى اكتسبتها كعمولة .. وهى تقول :

ـ هذا حقك وإن كان لى فيه نصيب ..

وهدى تنظر إليها نظرة يعتريها الشك والغيظ وقالت وهى تبتسم ابتسامة مرة مفتعلة :

ـ هذا حقك وحدك ..

وصاحت سارة وهى صادقة فى صيحتها :

ـ مستحيل .. إنى أعمل وأتحرك معك فى لندن .. بل إنى دخلت محلات هارودز وكأنى معروفة باسمك .. ثم إنك التى قدمتنى إلى مايكل الذى ساعدنى فى هذه العملية ..

وقالت هدى ولهجتها ساخرة :

ـ اعتبرى هذا المبلغ كأنه مكافأة لك على مصاحبتك لى ..

وانتهى النقاش الطويل بأن احتفظت سارة بالمبلغ كله .. وهى سعيدة فرحة به .. إنه أول مبلغ تكتسبه باعتمادها على نفسها وحدها .. ووضعت الأربعمائة استرلينى فى حقيبة يدها .. إنها لن تنفق منها أى جنيه .. إنها تحمل فرحة الكسب الأول لها فى عملية عالمية تمت فى لندن ..

ونامت وهى تحتضن حقيبة يدها التى تحمل فرحتها .. وتحس بالكمد والحسرة لأنها ستترك لندن غدا فى طريق عودتها إلى القاهرة .. تحس كأنه ستترك العالم الواسع لتعود إلى العالم الضيق ..

الحلقة الرابعة

وفى فجر السبت كان كل شىء قد انتهت هدى هانم من إعداده للسفر .. حقيبتان كبيرتان منتفختان بمشتريات لندن كانت هدى قد أبلغت سارة بأنها هى التى ستدخل بهما جمرك القاهرة .. وسارة تضيف إليهما حقيبتها الأصغر التى تضم ملابسها واحتياجاتها الخاصة وقد وضعت فيها ثوبها الجديد الذى كانت قد اشترته لها هدى .. كما وضعت فيها جهاز راديو صغيرا وجهازين كهربائيين لتصفيف الشعر .. ثم حقيبة يدها الصغيرة التى لا تزال تحتفظ فيها بمبلغ الأربعمائة استرلينى الذى لا يزال يثير فيها الفرحة الكبيرة بعبقريتها فى اقتحام الأسواق .. إنه أول مبلغ حصلت عليه من سوق لندن .. أما هدى هانم فهى لن تدخل جمرك القاهرة إلا بحقيبة واحدة ليست منتفخة جمعت فيها بعض المشتريات الخفيفة العادية فإنها لن تعرض نفسها لأى احتمال يمكن أن يثير أى مشكلة فى الجمرك وكان كل ما أعدته هو تخطيط وإعداد للمرور بالجمرك دون أى مشكلة ..

وكانت سارة قد اتصلت تليفونيا فى المساء وقبل أن تنام بالسيدات العربيات البتروليات اللائى حققت بهن إثبات عبقريتها فى سوق لندن .. وودعتهن فى حديث طويل كانت خلاله كأنها تكشف لهن عن كل ما يباع فى لندن ويحتجن إليه .. حتى تكتسب ثقتهن وتعلقهن بها كأستاذة فى المشتريات .. وأنهت الحديث وهى مقتنعة بأنها اكتسبت ثقتهن وصداقتهن فعلا .. وعندما تركت غرفتها فجر اليوم التالى وقفت أمام مكاتب الفندق وكتبت لهن ورقة تودعهن بها مرة أخرى وتسجل فيها اسمها وعنوانها .. إنها حريصة على الاحتفاظ بمن اكتسبتهن من المشتريات الثريات بعد أن أصبحت تعيش وهى

تفكر فى أن تتخصص فى أن تكون سمسارة لاجتذاب الزبائن إلى المحال العالمية ..

وفوجئت وهى فى مطار لندن بأن هدى هانم تحمل تذاكر تطير بهما أولا إلى جنيف فى سويسرا ومن هناك تأخذان طائرة أخرى تحملهما إلى القاهرة .. وقالت فى دهشة :

ــ لماذا لم تحجزى تذاكر تحملنا مباشرة إلى القاهرة ..؟

وقالت هدى هانم وهما تمران بين حواجز المطار :

ــ إن جمرك القاهرة يستقبل كل الوافدين من لندن بتركيز كبير وعيون مفتحة وتفتيش أدق كأن لندن هى المصدر الوحيد لدخول كل البضائع الأجنبية إلى القاهرة .. وربما كان ذلك لكثرة المترددين من المصريين على لندن .. ولكن رجال الجمرك لا يبذلون نفس التركيز على الوافدين من عواصم أخرى .. وقد اتفقت مع عادل شاهين مفتش الجمرك على أن يستقبلنا ضمن ركاب الطائرة القادمة من جنيف حتى يكون الجو الذى يحيط بنا أهدأ ..

وقالت سارة فى دهشة :

ــ غريبة ..

وقالت هدى هانم وهى تبتسم لسارة ابتسامة تحمل بعض الشك والحيرة :

ــ إنى أكشف لك عن كل أسرار العمل رغم إنى أحس أنك قد لا تبقين معى .. من يدرى .. ربما كنت تنوين إقامة بوتيك تستقلين به عنى وتقضين به على .. حدث هذا مع الكثيرات .. ولكن مازالت ثقتى فيك تطمئننى ..

وصاحت سارة :

ــ إنى معك إلى الأبد .. أنت أستاذتى التى أفاضت على بالخير .. بل أنت أمى .. ولا أستطيع أن أعيش أبدا بعيدا عن أمى ..

وهبطت بهما الطائرة فى مطار جنيف وأخذت سارة تطوف بالمحال التجارية داخل المطار .. وتسلط صف اللؤلؤ الذى تكشف عنه ابتسامتها على

الذين يديرون هذه المحال وتسأل عن فروق الأسعار بين ما يباع داخل الجمرك بالنسبة لما يباع خارجه .. واشترت جوربين حملتهما فى يدها دون أن تفكر فى إخفائهما عن جمرك القاهرة ..

وانتقلتا إلى طائرة أخرى تحملهما إلى القاهرة .. ولا شك أن كل الحقائب قد انتقلت معهما .. كلتاهما أغمضت عينيها كأنهما يستكملان النوم الذى لم تستكملاه فى لندن ..

وهبطنا فى القاهرة .. وقالت لها هدى هانم :

ــ لا داعى لأن تبادلينى أى حديث .. لتكن كل منا كأنها وحدها وليست مع الأخرى ..

ولكن هدى ظلت تسير وراء سارة كأنها ملتصقة بها .. ووقفتا أمام السير الذى يحمل الحقائب لأصحابها .. وهى تراقبها فى إمعان لتشد الحقائب التى تحمل مسئوليتها .. ثم تلكأت هدى إلى أن نقلت سارة هذه الحقائب إلى العربة الصغيرة التى تحملها وتشدها إلى الجمرك .. وسارة تلف عينيها من بعيد حول كل تحركات هدى .. ولاحظت وهى تقترب من مكاتب الجمرك بأن بينهم شخصا تتجه عيناه إلى هدى .. وعينا هدى تتجهان إليه كأنهما يتحادثان بلغة وإشارات العيون .. لا شك أن هذا الرجل هو عادل شاهين الذى حدثتها عنه هدى .. واتجهت إليه بالعربة التى تحمل الحقائب وعاونها الشيال الذى كان معها فى رفع هذه الحقائب إلى مائدة التفتيش .. ووقفت أمامه وهدى هانم لا تزال ملتصقة بها .. ومد الرجل يده وشد حقيبتها الصغيرة قائلا فى لهجة جادة وإن كانت مهذبة :

ــ افتحى هذه ..

وقالت سارة وهى تتعمد البساطة :

ــ مفتوحة ..

وفتح عادل شاهين الحقيبة فورا وأخذ يقلب بيديه فيها ثم أخرج جهاز

الراديو الصغير وقال مبتسما :

— بكم اشتريت هذا الراديو ..؟

وقالت فورا وفى نفس البساطة :

— بعشرة جنيهات استرلينية ..

وقال بسرعة :

— ستدفعين ثلاثين جنيها للجمرك ..

وانحنى يكتب ورقة تركها لموظف آخر ثم تعدى الحقيبتين الكبيرتين المنتفختين وأصبح أمام هدى هانم وابتسم كأنه لا يستطيع مقاومة الابتسام لها .. ولكنه فتح حقيبتها وفرض عليها هى الأخرى أن تدفع عشرين جنيها كضريبة ..

وتم كل شىء فى هدوء وبساطة إلى أن خرجتا من المطار والشيالون يجرون الحقائب إلى أن وضعوها فى السيارة التى كانت واقفة فى انتظار هدى .. سيارة ليست جديدة ولا فى منتهى الفخامة .. كأن هدى حريصة على ألا تحيط نفسها بمظاهر الثراء الفاحش ..

وما كادتا تضعان نفسيهما داخل السيارة حتى انحنت هدى تقبل سارة قبلة سريعة على وجنتها وقالت :

— الحمد لله .. إننا حملنا من لندن ما يكفى لموسم الشتاء كله إنى أفكر فى بيع بعض ما اشتريناه إلى اصحاب البوتيكات الأخرى ..

وقالت سارة وهى أيضا فى فرح :

— سنبيع كل ما جئنا به إلى زبائننا .. وأنا واثقة أننا قد نحتاج إلى أكثر لنبيع أكثر ..

وقالت هدى ضاحكة :

— إنى معتمدة على شطارتك ..

ثم استطردت فى حزم :

— سنذهب أولا إلى البيت ثم نختار ما سنعرضه فى البوتيك شيئا بعد شىء حتى

لا تزورى البوتيك مرة واحدة وستثير حولنا الأقاويل ..

وفى البيت كان فى انتظارهما الصديقات الثلاث اللاتى عدن من لندن .. وكل منهن أمامها الحقيبتان المنتفختان اللتان كانت تحملهما .. وهدى هانم تصافحهن وتتبادل معهن القبلات وعيناها تطوفان بحلقتين فى الحقيبتين .. تريد أن تتأكد أن ليس على إحداهما ما يثير الشك فى أنها قد سبق فتحها .. ثم جمعت المفاتيح التى كانت مع الصديقات وناولتها لسارة قائلة :

— ابدئى فى فتح الحقيبتين .. بالترتيب الذى تعرفينه ..

ثم أخذت الصديقات إلى غرفة مجاورة .. لتصفى مع كل منهن حسابها على اشتراكها فى عملية التهريب .. وصاحت سارة وراءها وهى تلقى المفاتيح على مائدة الغرفة :

— لنبدأ من الغد .. فإنى متعبة وأريد أن أرى أمى وإخوتى .. وسأكون معك غدا فى الصباح الباكر ..

وخرجت قبل أن تنتظر موافقة هدى هانم .. إنها فعلا متعبة .. وهى فعلا فى شوق عنيف إلى أمها وإخوتها .. وصلت إلى البيت فى إحدى حوارى شارع الهرم .. وألقت بنفسها فى أحضان أمها وهى تشهق كأنها تلتقط أنفاسا مريحة غابت عنها أياما طويلة .. ثم أخذت تحتضن إخوتها وكلهم يهللون بفرحة اللقاء ..

ولم تكن قد حملت شيئا لهم من لندن كهدايا .. إنها فى الواقع كانت وهى فى لندن مغمورة فى خواطر آمالها حتى لم يكن يخطر على بالها صورة أى واحد من أفراد عائلتها .. حتى أمها .. فلم تتذكر أن تشترى أى هدية لأى واحد منهم .. ورغم ذلك فقد وجدت فى حقيبتها ما يمكن أن تستغنى عنه وتوزعه على أمها وإخوتها ..

ولم تروِ لهم الكثير عما عاشت فيه وشاهدته فى لندن .. لقد كانت فى عمل .. وقد عودتهم على ألا تروى لهم شيئا عن حياتها فى العمل .. وهرعت تلقى بنفسها

على فراشها .. وأحست باسترخاء مريح لم تحس به طوال أيامها فى لندن .. كأنه لم يكن لها فراش هناك تسترخى عليه .. ورغم ذلك فكل ما يسيطر على خواطر فكرها حتى وهى مسترخية هى ذكريات أيامها فى لندن .. ونامت .. وكل أحلامها تستعيد آمالها التى انطلقت فى لندن .. ولا تغيب عن أحلامها صورة مايكل .. بل كأنها تسمع صوته الرفيع وترى قوامه الطويل واهتزازاته الخليعة وهى تحلم به ..

* * *

وكانت فى الصباح الباكر مع هدى هانم فى بيتها .. وقضت معها ساعات وهما تفتحان الحقائب تجمعان كل صنف على حدة .. ثم اختارتا ما ستعرضانه أولا فى البوتيك .. ونقلتاه إلى هناك فعلا .. وأخذت هدى وسارة تتصلان تليفونيا بزبائن البوتيك من سيدات المجتمع المصرى الثرى .. لتبلغهن أنهما قد عادتا من أوربا وأعادتا فتح البوتيك .. وكانت سارة أنشط وأذكى فى جمع العدد الأكبر من الزبائن ..

وازدحم البوتيك خلال أيام بالمشترين .. وسارة تبيع كثيرا .. وتحقق أرباحا خيالية .. إنها بينها وبين نفسها تحسب ثمن الجنيه الاسترلينى بأربعة أو خمسة جنيهات مصرية .. وتبيع بأثمان عالية تصل إلى المئات .. بل وصلت فى بعض القطع إلى الألف رغم أنها تعلم أنها لا تساوى سوى العشرات فى محلات مارك آند سبنسر .. وهدى هانم لا تستطيع أن تجارى سارة فى أسلوبها الذى تبيع به حتى أصبحت تفضل أن تترك سارة تستقبل كل الزبائن ..

وبعد سبعة أيام وصل إليها أول خطاب من مايكل على العنوان الذى تركته له .. عنوان بيتها فى حارة بشارع الهرم .. فقد كانت تريد أن تبتعد به عن هدى هانم وتعمدت ألا تترك له عنوان البوتيك .. وقد فرحت الفرحة الكبرى بوصول الخطاب إليها .. إن مايكل لم يكن يلعب بها .. ولم تكن مجرد غريبة مرت به .. إنه صادق فى أنه يريدها .. وهو فى خطابه يبدو كأنه معها .. إن كلماته تداعبها

وتكاد تراه بها وهو يتمايل فى دلال بقوامه الرفيع الطويل .. وتكاد تسمع صوته القبيح الرفيع الذى ينطلق من خلال ضحكته الدائمة .. وهو يقول فى نهاية الخطاب إنه فى انتظارها لتعيش معه فى لندن بعد أن يتزوجا .. لقد كان صادقا أيضا عندما عرض عليها الزواج ..

وجلست فورا تكتب الرد عليه .. وهى تجيد الحديث باللغة الانجليزية ولكنها لم تتعود كتابتها .. ورغم ذلك فهى تكتب وهى واثقة أنه سيفهم ما تكتبه له .. ولم تكتف بالتعبير عن عواطفها نحوه .. ولم ترد على طلب الزواج .. ولكنها تسأله عشرات الأسئلة .. كيف ستعيش فى لندن .. وكيف يمكن أن تجمع كل مطالب الحياة .. وهى فعلا لم تكن مقتنعة بالزواج من مايكل ..

إنها قد تتعامل مع هذا الشذوذ الذى يتحكم فى شخصيته .. ولكنه ليس هذا النوع من الرجال الذى يمكن أن تتزوجه . لعلها قد تجد حياة تظل فيها محتفظة به دون أن تتزوجه ..

والخطابات تتبادل بينهما .. وهو لا يزال يردد عليها طلب الزواج لتقيم معه فى لندن .. ويجيب على كل أسئلتها بما يطمئنها على تحقيق كل آمالها .. ولكن لماذا تتعلق هى بالإقامة فى لندن .. لماذا لا تنهى هذه القصة وتطرد مايكل من خواطرها وتكتفى بما استطاعت أن تحققه بالعمل مع هدى هانم .. وقد حققت أكثر مما كان يطرأ على خيالها وهى صبية .. إنها وصلت إلى أن أصبح نصيبها من نسبة المبالغ التى تبيعها يصل إلى خمسمائة جنيه فى الشهر .. بل وصل فى الشهر الأخير إلى ستمائة .. بالإضافة إلى مرتبها الذى ارتفع من مائة جنيه إلى مائتين .. وقد أفاضت بما تكسبه على كل أفراد عائلتها .. انتقلت بهم من الحارة إلى شقة فى عمارة جديدة بشارع الهرم .. وأصبحت أمها وإخوتها يعيشون كأنهم من الطبقة الثرية المنعمة .. فلماذا تترك كل هذا العز وتستمر فى وضع الخطط التى تتكفل لها الانتقال إلى العمل فى لندن ..

ورغم ذلك فلا تزال آمالها تلح عليها .. إنها كسبت فى لندن ومن عملية واحدة

أربعمائة جنيه استرليني .. أي أكثر من ألف جنيه مصري .. لقد كسبت في لندن من عملية واحدة وفي يوم واحد ما يساوي مكسبها في القاهرة من عشرات العمليات التي تقوم بها خلال شهر أو أكثر ..

إنها لا تزال تريد العمل في لندن ..

ولكن متى ستعود إليها .. إلى السوق الإنجليزية الزاخرة بالأموال العربية ..

وربما ستسافر هدى هانم إلى هناك بعد انتهاء موسم الشتاء والانتهاء من بيع كل بضائع البوتيك لتشترى من هناك كمية أخرى من البضائع ..

ولكن سارة بدأت تحس أن معاملة هدى هانم بدأت تتغير من ناحيتها .. لم تعد تتعامل معها في بساطة وصراحة كأنها ابنتها .. أو كأنها جاريتها .. لقد أصبحت تدقق معها في مراجعة كل الحسابات .. وتتابعها في كل عملها متابعة صاحبة المحل لإحدى الموظفات .. وتصدر إليها تعليمات في لهجة آمرة .. ومعظمها تعليمات تافهة لا داعي لإطلاقها كأن هدى تتعمد مجرد فرض سيطرتها كصاحبة محل ..

والأكثر من ذلك هو أن فوجئت سارة بموظفة جديدة تدخل بها هدى إلى المحل وهي تقول .. إن أعمالنا اتسعت وأصبحت متعبة ولا شك أنك في حاجة إلى من يساعدك .. ولم آت إليك بامرأة غريبة .. إن عدلية هي ابنة أختي .. إن هدى هانم لم تعد مطمئنة إلى سارة .. لم تعد تعتبرها كابنتها .. ولا حتى تعتبرها جارية من جواريها .. أصبحت تحس بها كشخصية قوية ذكية تخافها كأنها ستغتصب منها البوتيك ..

وبدأت سارة تعاني ثقل الصبر على ما يطرأ على هدى هانم من نوازع جديدة تعاملها بها .. ولا يعينها على الصبر إلا أنها تعيش أمل السفر إلى لندن لتحاول هناك إقامة حياتها الجديدة .. ولكن بعد ثلاثة شهور فاجأتها هدى بأنها مسافرة إلى لندن ..

وستسافر وحدها وستتركها لإدارة البوتيك .. وعجزت سارة عن إقناعها باصطحابها رغم كل ما بذلته أمامها من دموع ..

لم يعد أمامها إلا أن تستقل بنفسها عن هدى حتى تصل إلى لندن .. وهي لن تستطيع أن تصل بآمالها ومشروعاتها إلى هناك إلا إذا تزوجت مايكل .. ولكن لماذا تذهب إليه ليتزوجها في لندن .. لماذا لا يأتي هو ليتزوجها في القاهرة .. إنها لو استطاعت أن تفرضه عليه لاطمأنت أكثر إلى مستقبلها معه .. ثم إنها ستطمئن أكثر إلى إعلان إسلامه في القاهرة قبل أن يتزوجها .. وهو مستعد أن يعلن إسلامه كما قال في أحد خطاباته ردا على تساؤلاتها التي كانت تكتبها له ..

وهي رغم كل مغامراتها التي تدفعها إليها آمالها لا يمكن أن تتزوج إلا رجلا يعتنق الإسلام .. وقد لا يعني إسلامه إيمانه واقتناعه بالإسلام ويكفي أنه يستجيب لها حتى يستسلم لكل الإجراءات التي تصل به إليها .. إنهم هناك لا يعتنقون الأديان ولكنهم يكتفون بتسجيلها .. كمجرد عنوان ..

وفي نفس اليوم الذي سافرت فيه هدى هانم إلى لندن كتبت برقية إلى مايكل من بضع كلمات .. « إذا أردتني فتعال خذني من القاهرة » .

وبعد يومين وصلت برقية مايكل ردا عليها : « سأصل إلى القاهرة يوم الخميس على طائرة الخطوط البريطانية » .. وذهبت تستقبله في المطار وصحبت معها أمها وأكبر إخوتها .. إنها تحيط كل تحركاتها بمظاهر تفرض التقاليد التي تحقق الهدف ..

ونزل مايكل من المطار يجري .. وهم أن يحتضنها بعد أن وصل إليها ولكنها ابتعدت عنه في دلال وهي تشير إلى أهلها من حولها هامسة :

ـ أمي .. وإخوتي ..

كأنها تنبهه منذ اللحظة الأولى إلى أنها لا يمكن أن تكون له إلى حد أن يحتضنها ويقبلها إلا بعد أن يتم الزواج وتعترف به العائلة ..

وكانت قد أعدت كل شيء قبل أن يصل .. فأخذته توا إلى حجرة محجوزة له في فندق هيلتون .. وهو فرح فرحة كبيرة بوجوده في القاهرة .. ثم بوجوده معها .. وهو يريد أن يرى الأهرامات .. ولكن قبل أن تصحبه لرؤية الأهرام

يجب عليه أن يذهب بصحبة خالها إلى الجامع الأزهر وإلى الحسين وهم فى انتظاره هناك ليسجل إشهار إسلامه .. على أن يعقد القران يوم الخميس .. أى بعد يومين .. ولكن كيف تقول له إن التقاليد المصرية تفرض على العريس أن يدفع مبلغا من المال يسمى مهرا .. علاوة على أن يشترى لها قطعة من المصاغ كهدية تسمى شبكة .. لقد جاء وهو لا يحمل أى شىء كهدية لها ولأفراد عائلتها .. ربما كان بخيلا ضنينا بأن ينفق ما يكلفه زواجه بها .. يكفى ما أنفقه للوصول إليها .. ولكنها لم تحس بأنه بخيل عندما كانت معه فى لندن .. وربما كان شذوذه قد ألهاه عن محاولة اكتشاف ما يكلفه الزواج بها من أموال . واحتضنته بصف اللؤلؤ الذى تكشف عنه ابتسامتها .. وقالت فى دلال :

— إن العائلة فى انتظار أن تقدم ما قد يكلفك غاليا ..

وقال فى بساطة :

— أى أن أشترى دبلة الزواج .. لقد كدت اشترى الدبلتين من لندن .. ولكنى فضلت أن أشتريهما وأنت معى .. لا شك أننا نستطيع أن نشترى الدبلة من القاهرة ..

وقالت وصف اللؤلؤة يزداد اقترابا منه :

— هناك ما هو أكثر .. فإن التقاليد عندنا تفرض عليك أن تدفع للعائلة مبلغا يسمونه مهرا .. ثم تهدينى حلية تسمى شبكة .. إنها تقاليد إسلامية وقد أصبحت مسلما .. وأريد أن أخفف عن أفراد عائلتى صدمتهم بزواجنا الذى سيبعدنى عنهم ..

وقال وابتسامته تهتز بين شفتيه وصوته يخفت .. إنه يرتفع فوق شذوذه كلما واجه أى مسئولية .. وقال فى دهشة :

— كم يكلفنى كل ذلك ..

وقالت كأنها تشفق عليه :

— يكلفك قدر غلائى لديك .. وقدر ما تستطيع .. ثم إن نفقات عقد

الزواج مفروض أن يدفعها العريس .. وفى سرعة عصبية وضع مايكل يده فى جيبه وأخرج دفتر الشيكات .. وقالت سارة بسرعة كأن خاطرا مفاجئا قد دهمها :

— اكتب الشيك باسمى ويستحق الصرف فى بنك لندن .. وسأتصرف أنا ..

وقال وهو يهز رأسه كأنه يطمئنها :

— خمسمائة إسترلينى .. هذا كل ما أستطيعه الآن ..

وقالت ضاحكة فى فرحة :

— هذا يكفى .. تعال لنشترى الشبكة ..

وكانت قد سبق أن اختارت لنفسها سوارا من الذهب المرصع بالماس من قبل أن يصل مايكل ومنذ أن قررت أن تتزوجه .. فذهبت به إلى الصائغ الذى تعرفه واشترت السوار الذى سبق أن اختارته وفتحت حقيبتها ودفعت ستمائة جنيه مصرى .. وقد صحبته بعدها إلى بيتها وجلسا مع أمها وإخوتها .. ثم فتحت حقيبتها مرة ثانية وأخرجت منها ألف جنيه أعطتها لأمها .. وقالت :

— هذا هو المهر الذى قدمه لى مايكل ..

وكانت قد أعدت كل شىء وهى واثقة من أنها ستنجح فى تحقيق الخطة التى وضعتها .. وأطلقت أمها زغرودة وشدت مايكل وقبلته .. ثم همست سارة فى أذن مايكل وهى ملتصقة به :

— إنى أحتفظ بالشيك الاسترلينى فقد نحتاج إليه فى لندن ..

وهز مايكل رأسه موافقا كأنه يحيى ذكاءها وعبقريتها فى توفير شئونها ..

وأخذته فى اليوم التالى تطوف به معالم القاهرة .. أخذته إلى الأهرامات وإلى الأنتكخانة وتطوف به الشوارع وهى تقول له :

— أريدك أن تحب القاهرة كما هى لا كما كانت ..

وسارة لم تذهب إلى البوتيك .. تركته كله لعدلية التى جاءت بها هدى

وقالت إنها ابنة أختها .. ولم تكلف نفسها حتى تتبع أخبار البوتيك بالتليفون .. إلى أن جاء يوم الخميس .. وبعد الظهر اجتمعت العائلة وبينهم مايكل وليس معهم أحد من الغرباء .. كأنهم سيقومون بعملية سرية لا يكشفون عنها .. وخالها كان الرجل الكبير بينهم .. وقد جاء بلا أحد من عائلته .. أى بلا زوجته ولا أولاده .. وهو يجلس مكظوما مهموما كأنه فى مأتم وليس فى فرح وربما لم يدفعه إلى الاشتراك فى عقد هذا الزواج إلا أنه سعى إلى رضاء الله بالاشتراك فى إعلان إسلام مايكل .. وكل أفراد العائلة كانوا صامتين مجمدين لا يبدو عليهم إلا الاستسلام .. وأمها تحاول أن تفتعل الفرحة وتدفع إليها باقى أفراد العائلة .. ولكن لا أحد يفرح وهى نفسها لا تكاد تطلق الزغرودة حتى تبتلعها كأنها تحشرج فى حلقها وتكاد تخنقها .. إن ابنتهم تتزوج رجلا غريبا إنجليزيا وستتركهم لتعيش معه فى لندن فكيف يفرحون ..

وجاء المأذون وكتب عقد الزواج .. لقد أصبحت زوجة محمد المهدى رفنجستون .. وكان مايكل قد أصبح يحمل هذا الاسم بعد أن أعلن إسلامه .. ولكن سارة تفضل أن تعرف من الآن باسم .. مسز رفنجستون .. وقد تركت عقد الزواج لخالها حتى يسجله فى الشهر العقارى كما سبق وكانت قد اتفقت معه .. فقد تزوجت رجلا أجنبيا ..

وبعد أن تناولا مع أفراد العائلة عشاء أعدوه استكمالا لمراسيم حفل الزواج .. وكل منهم يأكل كأنه يبتلع مرا .. خرجت سارة مع زوجها مايكل لتنام معه فى غرفة فندق هيلتون ..

غريبة ..

إن سارة لا تستطيع أن تتمسك بالخفر والحياء كعروس فى ليلة زفافها .. وكأن الرجل الذى تزوجته لا يدرى شيئا عما يجب أن يتم وهى فى أحضانه .. إنه ما أن بدأ يقبلها حتى هام فى قبلتها وأخذ يرفس بقدميه وشفتاه بين شفتيها يلعقان بشراهة فى صفى اللؤلؤ .. ثم رحمها بنزع شفتيه عن شفتيها واستلقى

[illegible] على ظهره وهو يضحك ضحكات زاعقة ويقول كلاما لا تفهم منه [illegible] .. ثم عاد إلى شفتيها إلى أن عاد ونزع نفسه منها واستلقى على ظهره يضحك سعيدا وفى منتهى السعادة .. ومنبهرا بمتعته منتهى الانبهار .. كأنه غطساته بين شفتيها تنقله إلى عالم آخر .. إلى الجنة .. وتكررت هذه الغطسات حتى تغلب على سارة إحساسها بأنها يجب أن تعلن ما يجرى فى ليلة الزفاف .. ومسحت على رأسه بكفها كأنها تشفق عليه ثم قامت وخلعت ثيابها بنفسها وتقدمت إليه عارية لتخلع عنه ثيابه هو الآخر وهو راقد على ظهره يضج بمنتهى السعادة .. وأخذت تحركه كأنها امرأة تحمل مسئولية رجل فى أن تصل به إلى حقه عليها .. وهو مستسلم فى منتهى الاستسلام وفى منتهى المتعة والسعادة ..

ومن ليلتها وسارة تحس بمسئولياتها كل ليلة وهى امرأة كأنها الرجل .. إن زوجها خاضع خضوعا تاما لكل ما تدفعه إليه وتحركه به .. وهى سعيدة .. لأنها الأقوى وهى صاحبة الأمر .. حتى لو كانت قد اكتشفت منتهى الشذوذ فى زوجها .

* * *

وقضيا يومين فى القاهرة .. تطوف به طول النهار والليل .. وتدخل به إلى مطاعم الكباب والفول والطعمية ليتناول الغداء .. كأنها تعوده على أن يحب كل ما تقدمه مصر حتى مأكولاتها .. وتصحبه إلى الكباريهات ليرى كيف ترقص مصر ويسمع موسيقاها وأغانيها .. وهو منبهر فعلا بكل ما فى مصر ويشتد انبهاره وهو يطوف بحوارى الأحياء القديمة .. ولا تنسى أن تتركه ينهال على كئوس الخمر .. إنها لا تريد أن يحرمه الإسلام من شىء مما تعود عليه .. حتى لا يضيق بالإسلام .. وهى دائما تفتح حقيبتها وتدفع ثم تمسك بقلم وتسجل على ورقة صغيرة ما دفعته كأنها تنوى محاسبته ..

ولم تظهر به بين من تعرفهم ولم تقدمه إلى أحد من صديقاتها أو أصدقائها .. ولكنها صحبته وهى تدخل بوتيك هدى هانم .. وصاحت بها عدلية صارخة

كأنها تعاقبها أو تلومها :

ــ أين أنت .. إنك لم تسألى ولو بالتليفون ..

وكنت أخشى أن تكونى مريضة ..

وقالت سارة فى هدوء وصف اللؤلؤ يلمع بين شفتيها كأنه يهلل :

ــ كنت أتزوج ..

ثم أشارت إلى مايكل تقدمه إلى عدلية قائلة :

ــ زوجى .. محمد بيه المهدى .. وسنسافر غدا ..

وبحلقت عدلية فى وجه مايكل وهى مصعوقة بدهشة المفاجأة ثم أفاقت من دهشتها وقالت لسارة :

ــ ألا تنتظرين إلى أن تعود هدى هانم من لندن ..

وقالت سارة وهى تتمايل كأنها تتباهى بنفسها :

ــ لا أستطيع .. إن زوجى يجب أن يسافر غدا .. وأنا أعلم أن هدى هانم تثق فيك وفى إدارتك للبوتيك كما كانت تثق فى وربما أكثر لذلك فإنى أسافر وأنا مطمئنة إليك ..

ثم ناولتها خطابا كان قد سبق أن كتبته وناولته لعدلية قائلة :

ــ هذا خطاب لهدى هانم لتقرأه بعد أن تعود .. ومن حقك أن تقرئيه .. إنه مفتوح ..

ثم مالت وقبلت عدلية على وجنتيها قبلات لا معنى لها كأنها تحية رسمية .. وشدت مايكل وراءها وخرجت من البوتيك .. وطافت به بقية اليوم .. واشترت له وهما يطوفان جلابية وطاقية وشبشبا على طراز المركوب وهى تقول ضاحكة :

ــ أريد أن أراك ونحن فى بيتنا كأنك ابن بلدى .. مصرى ومسلم ..

وقضت الليل معه على الفراش وكأنها تلعب معه أو أنها تلعب به .. وهى تزداد ابتكارا لحركات إثارة متعتة بها .. حتى أصبحت تحس أنها فى أحضان

[illegible]ون .. وهى تضحك سعيدة مغرورة بنفسها .. فإنها هى التى استطاعت أن [illegible] كل هذا الجنون ..

وفى صباح اليوم التالى نزلت من الغرفة وحدها ودخلت إلى إدارة الفندق ودفعت الحساب كله .. كانوا يريدونها أن تدفع بالإسترلينى ولكنها استطاعت إقناعهم بأن تدفع لهم بالجنيهات المصرية .. واحتفظت بفاتورة الحساب فى يدها وعادت إلى الغرفة وألقتها أمام زوجها مايكل دون أن تتكلم مكتفية بابتسامتها .. وراجع مايكل الفاتورة بعينين مدققتين .. إنه كعادته يتقمص الجدية كلما واجه مسئولية .. ثم فتح الدرج القريب منه وأخرج دفتر الشيكات .. وأعد شيكا .. إن الشيك باسمها كما سبق وطلبت منه .. وهو شيك يساوى خمسمائة جنيه إسترلينى .. وقال وهو يناوله لها :

ــ هل هذا يكفى تغطية كل الحساب ..

وقالت من خلال صف اللؤلؤ :

ــ ليس بينى وبينك حساب .. كل ما تريده يكفى ويسعدنى ..

وكانت قد لمحت الرقم وهو يسجله على ورقة الشيك .. ولكنها ادعت أنها لن تراجع الشيك وألقت به فورا فى حقيبتها .. وهى تحسب داخل رأسها ما أصبح معها .. لقد سبق أن أعطاها خمسمائة .. ثم هذه خمسمائة .. ومعها الأربعمائة التى سبق أن أخذتها بعد العملية التى قامت بها فى محلات هارودز .. لقد أصبح معها مبلغ كبير يكفى مواجهة الأيام الأولى فى لندن ..

وانتهيا من إعداد حقائبهما وصحبته إلى بيتها لتوديع عائلتها .. إنها تترك أمها وإخوتها بعد أن تركت لهم رصيدا يكفيهم لمدة شهور ويوفر لهم مستوى الحياة التى رفعتهم إليها .. والعائلة مصرة على أن تصحبها حتى المطار ..

وتركتهم فى المطار مبتعدة نحو الطائرة وهى متعلقة بذراع زوجها .. ودموع أمها تغطى وجهها حتى مسحت عنها ابتسامة الوداع .. إن سارة لا تجد دموعا تردها على دموع أمها .. إنها تحس بأن كل ما فيها يطير إلى لندن من قبل أن تصل

إلى لندن .. تحس بنفسها تطير مع آمالها نحو الأفق الواسع البعيد .. ونشوتها تسيطر على شخصيتها حتى تكاد تجعل منها شخصية أخرى .. ورأسها مرفوع .. وخطواتها قوية ثابتة لا تهز قوامها هذه الهزات المثيرة التى تتراقص بقوامها الرقيق الرشيق .. إنها لا تحس بأنها سارة العباسى إدريس .. ولكنها تحس بأنها مسز رفنجستون ..

الحلقة الخامسة

كانت سارة سألت زوجها مايكل وهما فى الطائرة قبل أن يصلا إلى لندن :

ـــ أين سنقيم ؟

وقال مايكل بصوته الرفيع المغنج وهو يضحك :

ـــ طبعا ستقيمين معى ..

وقالت وهى تضحك معه ..

ـــ أين أنت فى لندن ..؟

وقال وهو يتعجب من سؤالها كأنها غريبة لا تعرف كل شىء عنه :

ـــ أقيم فى شقتى .. وقد تذكرت الآن أنك لم تدخلى شقتى حتى الآن .. إنها شقة رائعة .. الحجرة واسعة ومعها صالة .. وكل نوافذها تطل على حديقة ريجنت بارك .. وإيجارها غال .. حتى إنى أدفع فيها أكثر من نصف دخلى الشهرى .. ولكنها تستحق ..

وقالت وهى تضغط فى إصرار على صف اللؤلؤ الذى تلمع به أسنانها :

ـــ إنى لا أستطيع أن أقيم فى شقة ويجب أن أقيم فى أحد الفنادق الكبرى فإنى سأبدأ فورا العمل فى اجتذاب المشترين إلى محلات هارودز .. إنك الذى نصحتنى بهذا العمل .. ولن أستطيع أن ألتقى بالمشترين إلا إذا أقمت فى فندق يقيم فيه الأثرياء من النساء العربيات البتروليات ..

وقال وابتسامته تضيق :

ـــ إنى لا أستطيع أن أقيم فى فندق .. يجب أن تكون لى دائما شقة .. ثم إن الإقامة معك فى فندق كبير سيكلفنى أكثر مما أطيق ..

وسرح بها خيالها وقالت كأنها تحادث نفسها :

— ستقيم أنت فى الشقة .. وأقيم أنا فى فندق .. ونجد وسيلة تجمع بيننا كل يوم وكل ليلة ..

وقال كأنه يحادث نفسه هو الآخر :

— لا يهم أين تقيمين وأين أقيم .. المهم أننا نحن الاثنين فى لندن ..

وخيالها يحاول أن يرسم صورة لحياتها فى لندن .. إنها لم تقدم على هذه الحياة لتعيش كزوجة لمايكل .. وهى إلى الآن لا تحس بنفسها زوجة له .. إنه رجل تحتاج إليه حتى تحقق خطتها فى الوصول إلى قمة النجاح فى العمل الذى اختارته لنفسها .. إنها كامرأة تزوجت رجلا لا تحس بأى قيمة له إلا أنه ثرى وستعيش ثراءه .. ومايكل ثرى بالخدمات التى يمكن أن يقدمها لها .. ولا تحس إلا بهذه الخدمات وهى تعطى نفسها له وتوفر متعته بها نظير ما يدفعه من خدمات لا أنها أصبحت زوجته .. إنها حتى لا تعرف كيف تكون زوجة لرجل إنجليزى .. وأفاقت من خيالها ومالت عليه كأنها تخشى أن يفر منها وقالت : إنى لا أصمم على أى شىء .. وسأبقى معك فى الشقة إلى أن أقرر ما أصمم عليه .. واجتازت معه المطار وهى تحمل اسمه .. مسز مايكل ستيوارت رمنجستون .. فقد كان مايكل قد استخرج لها فيزا من السفارة البريطانية فى القاهرة على أنها زوجته دون أن يسجل أنه أعلن إسلامه وغير اسمه .. ودخلت لندن وهى تحس أنها تدخل عاصمتها الجديدة التى استولت عليها .. لقد أصبحت إنجليزية ما دامت زوجة لإنجليزى .. وتطوف بعينيها على كل ما تمر به كأنها ليست غريبة عنه . كل شىء فى بلدها ولا تحس بأنها مجرد زائرة .. أو سائحة يسيطر عليها نهم السائح فى التطلع إلى كل شىء كما كان إحساسها عندما دخلت لندن أول مرة وهى ليست زوجة إنجليزى .

وفتح مايكل باب الشقة وفوجئت بأفراد وشلة أصدقائه الثلاثة يهللون لهما .. لا شك أن مايكل أبلغهم بمجرد وصوله دون أن يهتم بأن يقول لها إنهم سيكونون فى انتظاره .. ولا شك أن كلا منهم يحمل مفتاحا لشقة الآخر ..

ارتباطات عجيبة تربط هؤلاء الأصدقاء .. ومع الأصدقاء الثلاثة صديقاتهن الثلاث .. الأندونيسية واليابانية والزنجية الأمريكية .. وهجم الرجال الثلاثة على مايكل يقبلونه دون أن يهتم بها أحد منهم أو يحس بوجودها بينهم .. وهم يصارخون بكلماتهم وضحكاتهم .. ثم سكتوا جميعا مرة واحدة وهم يتبادلون النظرات .. ثم شد أحدهم يد مايكل ودخل به الغرفة ووراءهما الاثنان الآخران .. ثم أغلقوا باب الغرفة عليهم .. وعاد صياحهم ينطلق من وراء الباب .. ووجدت سارة نفسها جالسة بين النساء الثلاث .. الأندونيسية واليابانية والزنجية الأمريكية .. ترى هل هن متزوجات من الرجال الثلاثة كما تزوجت هى من مايكل .. أم أنهن مجرد عشيقات وصاحبات .. لا يهم .. إنهم لا يسألون فى لندن عن العلاقة بين الرجل والمرأة .. يكفى أن كلا منهم مع الآخر بإرادته الحرة .. إنهم لا يهتمون بما يعتبر علاقة شرعية .. إن الشرع الوحيد هناك هو الحرية الشخصية .. كل رجل حر مع كل امرأة حرة .. وأخذت تتبادل مع النساء الثلاث كلاما وضحكات مفتعلة وقد تركتهن لكئوس الخمر دون أن تشاركهن فيها .. ولا تدعوها إحداهن إلى رشفة كأس .. إنهن يتركنها حرة فإن أرادت كأسا فإنها تستطيع أن تعده لنفسها .. وسارة تتقاذف بها التساؤلات .. إن كل رجل من الرجال الأربعة بما فيهم زوجها مرتبط بامرأة غريبة عنه .. ليست من بلده ولا من قومه .. ما الذى يجمعهم فى هذا الشذوذ .. ربما كانت من طبيعة الرجل الإنجليزى الاندفاع نحو الاكتشاف .. اكتشاف البعيد الغريب .. والإمبراطورية البريطانية كلها قامت على اكتشاف البعيد الغريب .. والرجال الأربعة كل منهم يحاول اكتشاف البعيد من الأرض .. أحدهم اكتشف أندونيسيا .. والثانى اكتشف اليابان .. والثالث اكتشف أمريكا .. ولعل زوجها مايكل اندفع إليها فى محاولة لاكتشاف أفريقيا ممثلة فى لونها الأسمر الداكن .. وكل رجل يصل إلى تذوق ما اكتشفه والعيش فيه .. ولكن زوجها مايكل إذا كان ما دفعه إليها هو شهوة إكتشاف أفريقيا فإن أفريقيا أيضا تحاول

اكتشاف أوروبا .. أو أنها على الأقل تحاول اكتشاف لندن عبر زوج إنجليزى ..

ولم تحاول إحدى النساء أن تقوم وتفتح باب الغرفة أو تدق عليه ليعود إليهن الرجال .. كأن النساء الثلاث تعودن على هذه التصرفات الشاذة .. ولكن سارة لم تكن قد تعودت بعد وبدأت تضيق وتزفر أنفاسها فى حدة دون أن تتفوه بكلمة .. إلى أن مضى ما يقرب من الساعة ولا يزال ضجيج الرجال ينطلق من وراء الباب .. ثم خرجوا إليهن والسعادة تفيض على وجوهم وتنطلق من شفاههم الضحكات .. وبدأوا يديرون التسجيلات الموسيقية وكل منهم شد امرأته وبدأ يراقصها .. ولكن سارة لم تعد تحتمل .. كان قد فاض بها التعب فعلا .. فحملت حقيبتها ودخلت بها الغرفة وأغلقت الباب وراءها .. دون أن يحاول أحد ولا حتى زوجها أن يحتفظ بها بينهم أن حتى يسألها لماذا تتركهم ..

وفى الغرفة فتحت حقيبتها وخلعت ثوبها وارتدت ثوب النوم وألقت نفسها على الفراش .. لم يهمها أنها وجدت الفراش مبعثرا مشتتا .. ألقت نفسها عليه كما هو .. وهى تلتقط أنفاسها تحاول أن تستريح من الشواكيش التى تنهال على رأسها ..

وفى الساعة التاسعة انصرف الرجال ومعهم صديقاتهم .. يبدو أنها ساعة محددة لانتهاء لقاءات الليل .. لقد كانت التاسعة أيضا عندما التقت بهم أول مرة .. ودخل إليها مايكل ضاحكا وأسقط عليها شفتيه يقبلها .. ثم ألقى بنفسه بجانبها وهو رافع ذراعيه دون أن يخلع ملابسه فى انتظار أن يجدها بين أحضانه إلى أن تبدأ فى خلع ملابسه عنه .. ولكنها لم تتحرك .. وادعت أنها قد نامت ولم تعد تحس به .. تركته يتولى أمر نفسه بعيدا عنها ..

* * *

وكان أول صباح لها فى لندن .. وكان على مايكل أن يعود إلى عمله فى محلات هارودز وصممت أن يصحبها معه ليقدمها إلى الرؤساء لتعرفهم ويعرفوها .. وتسجل اسمها كسمسارة لاجتذاب الزبائن والبيع لهم نظير عمولة قيمتها عشرة

فى المائة من ثمن ما يباع عن طريقها ..

وكانت قد أعدت نفسها بأجمل ما يقدم سمارها الداكن .. وقوامها المثير الرشيق الذى يتلوى فى رقة مع خطواتها كأن ليس فيه شىء من العظام .. وشعرها الأسود اللامع الذى تتركه ينسدل على جبينها ويتجمع على كتفيها .. وصف اللؤلؤ الذى يبرق وهى تكشف عنه بابتسامتها .. واختارت ثوبا ليس زاعقا فى لونه ولا يكشف عن ركبتيها ولا ذراعيها ولكن كأنه يحرض الدنيا على نزعه لاكتشاف ما تحته .. واستقبلها كل رؤساء الأقسام الذين قدمهم لها مايكل بانبهار من يفاجأ بتحفة نادرة غالية .. ولم يكن مايكل يقدمها على أنها زوجته إنه فقط يعرفها ويشهد بمقدرتها على العمل .. ربما لم يتعمد ذلك ولكن لم يكن يخطر على باله أنه تزوجها .. وأخذت سارة تطوف بكل ممرات هارودز وتتعارف بكل من يقبل التعرف بها من الموظفين .. وكانت كأنها تريد أن تلم بكل ما يبيعه هارودز .. إنه يبيع كل شىء وليس الفساتين ومطالب النساء فحسب .. وكانت تسأل عن الأسعار لتكتشف أغلاها وأدناها .. بل وتفرق بين البضائع الرائجة والبضائع الكاسدة التى يجد المحل صعوبة فى التخلص منها .. تريد أن تعرف وتفهم كل شىء .. ورغم ذلك فهى تعرف أنها تقدم نفسها لأنها تطوف وحدها ولكن إذا دخلت هارودز ومعها زبون اصطادته فهى تدخل كأنها الأخرى زبونة لا تعرف أحدا ولا يعرفها أحد .. إن علاقات العمل بينها وبين محلات هارودز ستبقى سرية ولا يعلم أحد من الزبائن أنها سمسارة .. وصعدت إلى زوجها مايكل بعد أن تعبت من الطواف والسؤال وقالت له هامسة حتى لا يسمعها الزبائن الملتفون حوله :

— متى ستعود إلى البيت ؟.

وقال وهو يقبلها بابتسامة :

— فى السادسة ..

وقالت متعجلة :

— سأكون هناك فى الخامسة .. أعطنى المفتاح .

وأعطاها مفتاح الشقة بلا تردد .. وخرجت من محل هارودز كله واستأجرت سيارة أجرة وأخذت تطوف بها على الفنادق المعروفة .. إنها تريد أن تختار الفندق الذى تقيم فيه ويكون مزدحما بالنزلاء العرب .. وتدخل كل فندق وتدير عينيها فى صالات الاستقبال .. وتستطيع أن تقدر مدى إقبال العرب كأنها تشم رائحتهم فى كل فندق. إن العرب يفرضون شخصيتهم على كل فندق يتزاحمون فيه .. إلى أن وصلت إلى فندق هيلتون المطل على حدائق هايد بارك .. وقدرت أنه أكثر الفنادق ازدحاما بالعرب .. وتقدمت وحجزت لنفسها غرفة فيه ابتداء من الغد .. وكانت غرفة لها وحدها وسجلت اسمها المصرى الخالص .. سارة العباسى إدريس .. بل سجلت على نفسها أنها آنسة وليست سيدة متزوجة .. إنها لا تريد أن يعرف أحد من الزبائن الذين تصادفهم أنها أصبحت إنجليزية تقيم فى لندن .. ولا أنها سيدة متزوجة من رجل إنجليزى .. وهذا ما يحفظ لها شخصية أكثر اجتذابا للزبائن العرب .. وخصوصا النساء العربيات البتروليات ..

وقبل أن تقرر العودة إلى بيت الزوجية قررت أن تعد لزوجها مايكل عشاء مصريا .. إنها تريده دائما أن يعيش شخصيتها لا أن ينقلها إلى شخصيته وكانت تعرف بقالة فى لندن أقامها مهاجر لبنانى ويبيع كل المأكولات العربية ووجدته يبيع البامية فاشترت منها .. واشترت معها اللحم والسمن والأرز ولم تنس الليمون .. وحملت ما اشترته إلى البيت .. إنه بيتها فهى الزوجة .. ودخلت المطبخ فورا وأخذت تعد عشاء البامية .. ودخل زوجها عليها فى الساعة السادسة تماما .. كان هو الذى فتح لنفسه .. يبدو أن معه مفتاحا آخر .. وصاحت وهى تقلب البامية على النار :

— إنى أعد لك عشاء رائعا .. سأعود بك إلى القاهرة .. وقال وهو يحتضنها :

— إننا يجب أن نذهب إلى الشلة .. ورفعت إليه عينيها كأنها فوجئت وصف اللؤلؤ يحاول أن يشده إليها :

— إنى أريدك لى وحدى .. إننا لا نزال فى أيام شهر العسل .. وقال كأنه يقاوم صف اللؤلؤ .. لقد تركتهم أسبوعا قضيته معك فى القاهرة .. ولن يحتملوا أكثر من ذلك ولا أنا .. والتصقت به وهى تقول ضاحكة :

— إنى استطيع أن أغنيك عن الشلة .. ثم شدت سترته عن كتفيه ودفعته إلى غرفة النوم وألقت به على الفراش .. إنها تريد أن تنهكه حتى تعجزه عن الذهاب إلى الشلة .. وقد استسلم فترة ثم قفز بعيدا عنها وأخذ يعيد ارتداء ملابسه .. إنه لن يستسلم وقال لها وهو يهم بفتح باب الخروج :

— سأذهب إليهم وحدى وسأعود إليك فى التاسعة .. وقالت وهى تلاحقه :

— إنى حجزت لنفسى فى فندق هيلتون ابتداء من الغد ..

وتوقف لحظة قائلا :

— وكيف سنلتقى ..؟

قالت فى عجلة كأنها تصيح وراءه :

— سأكون هنا كل يوم فى الساعة الخامسة بانتظارك ونتفق على بقية المساء .. وسأحتفظ بمفتاح الشقة معى .. وقال وهو يجرى إلى المصعد الذى سينزل فيه :

— هائل .. معقول .. وإنى أحتفظ للشقة بعشرات المفاتيح ..

واختفى من أمام عينيها .. وعادت تزحف بخطواتها نحو المطبخ وهى مستسلمة لقدرها وابتسامتها تتسع كأنها تطمئن نفسها على قدرتها على احتمال كل الغرائب حتى تحقق أهدافها .. وكانت قد تركت الآنية التى تطبخ فيها البامية فوق النار فوجدت البامية قد احترقت وأصبحت كعجينة داخل الإناء .. وضحكت ضحكة عالية .. وشدت الإناء وأخذت تأكل الطعام المحروق .. ولم تحاول أن تنتظر زوجها حتى يعود من بين أحضان الشلة .. ألقت نفسها على

الفراش وبذلت مجهودا عصبيا حتى تبعد خواطرها عن فكرها لتنام ..

ونامت فعلا .. غطست فى النوم .. وفى صباح اليوم التالى انتقلت إلى الفندق .. ونزلت إلى البهو بعد أن تركت حقيبتها فى غرفتها .. إن كل شىء يتم فى منتهى السهولة .. يكفى أن تتقدم وتحيى باللغة العربية فترتبط بصداقة فورية مع أى عربى .. إن اللغة العربية وحدها فى لندن كأنها جواز مرور بين العرب بعضهم وبعض .. كل منهم يمر بترحيب الآخر .. وقد تعرفت منذ اليوم الأول بمجموعة من نساء العرب الثريات .. إن كل من تقيم فى فندق هيلتون لا شك أنها ثرية فهو فندق غال جدا .. وقد قدمت نفسها على أنها مصرية سائحة قد تطول بها مدة سياحتها لأنها تحاول الالتحاق بإحدى الجامعات البريطانية .. وهى ليست المرة الأولى لها فى لندن .. إنها تعرف لندن كأنها بلدها من كثرة ترددها عليها .. ووصلت بذكائها إلى الحديث عن أسواق لندن .. واستطاعت أن تشدهن إلى محلات هارودز .. ودخلت بهن دون أن تحيى أحدا أو يحييها أحد .. ودفعتهن إلى الشراء .. وخرجت فى يومها الأول بنسبة عمولة تجاوزت المائة استرلينى .. بدأت تبنى بها دنياها ..

وفتحت عينيها فى صباح اليوم التالى وهى تفكر بل وتتمنى أن ترى هدى هانم صاحبة بوتيك القاهرة التى كانت صاحبة الفضل فى السير بها نحو الأفق البعيد .. إنها لا تريد أن تريح ضميرها باعتذارها وتأسفها على هجرها فحسب بل إنها فعلا تحس بشوق إليها .. إنها تحس بها أحيانا كأنها أمها .. ولكن هل هدى هانم لا تزال فى لندن .. وهمت أن تتصل بالتليفون بفندق تشرشل الذى تعودت هدى أن تقيم فيه .. ولكنها أحست أنها تخافها .. وأحست أن هدى قد تتعالى عليها وتحتقرها إذا بدأت هى الاتصال بها .. وفضلت أن تترك لقاءهما فى لندن للصدفة .. وأين يمكن أن تتحقق هذه الصدفة .. لتذهب إلى محلات مارك آند سبنسر التى تعودت هدى أن تستورد منها مطالب البوتيك بالقاهرة .. وفعلا ما كادت تجمع حولها بعض النساء العربيات البتروليات حتى تصحبهن معها إلى مارك آند سبنسر .. إنها

تسجل نفسها فى هذا المحل كسمسارة .. أى لن تأخذ أى عمولة .. وهو محل البيع الرخيص ولن تندم على ساعة تعمل فيها بلا عمولة .. وأخذت تطوف بجوانب المحل وعيناها تطوف حولها بحثا عن هدى .. وقد ارتعشت عندما رأتها من بعيد .. ثم لم تستطع أن تقاوم الانجذاب إليها .. ووقفت أمامها لا تجرؤ على احتضانها وتقبيلها .. لا تجرؤ على مد يدها لمصافحتها وقالت فى صوت محشرج :

— إنى آسفة يا هدى هانم .. لقد كنت مضطرة .

وقالت هدى وهى تنظر إليها فى تعال وبين شفتيها ابتسامة ساخرة :

— لا تأسفى .. فقد كنت منتظرة ومتأكدة أنك ستتركين يوما العمل معى .. وقد أبلغتنى عدلية بالتليفون أنك تركت البوتيك .. ولم أفاجأ .. كل ما حدث أنى كنت قد قررت أن أبقى فى لندن ثلاثة أسابيع فاختصرت المدة إلى أسبوع واحد .. وسأسافر غدا .. وقد أبلغتنى عدلية أيضا أنك تزوجت من رجل إنجليزى ..

وقالت سارة بصوتها المرتعش :

— إنه مايكل الموظف فى محلات هارودز الذى سبق أن قدمته إلى وقدمتنى إليه .. إن أفضالك تشمل كل حياتى ....

وقالت هدى هانم بلهجتها المتعالية :

— إنه يستطيع أن يقدم لك كثيرا من الخدمات ويكشف لك أسرار السوق .. وحاولى أن تثبتى وجودك فى لندن فقد أحتاج إليك .. وأرسلى لى عنوانك على بوتيك القاهرة ..

واستدارت لها هدى هانم دون أن تصافحها ودون أى كلمة وداع .. وسارة واقفة مجمدة تتبعها بعينيها .. إن من حق هدى أن تواجهها بهذا التعالى والاحتقار .. ولكن ماذا يمكن أن تحتاج إليها فيه كما قالت لها .. ربما تطلب .. ربما تطلب منها يوما أن تقوم بتصدير بعض البضائع إلى القاهرة لتوفر على نفسها بعض سفرياتها إلى لندن .. وأفاقت سارة من جمودها وبدأت تطرأ على فكرها خواطر

جديدة .. فلماذا تحصر نفسها فى التعامل مع محلات هارودز .. لماذا لا تجمع فى العمل كل محال لندن حتى المحلات المعروفة سواء المحال التى تبيع الرخيص أو تبيع الغالى .. إنها قد تحقق فى الرخيص عمليات أكثر تحقق لها عمولات أضخم مما تحققه عن طريق التعامل مع الغالى .. واستعانت بزوجها مايكل حتى يعرفها بالمسئولين فى محلات مارك آند سبنسر ليسجلوا اسمها كأحد سماسرة المحل .. ثم وصلت إلى محلات « جون لويس » ومحلات « سى آند إيه » .. ومحلات « موذركير » التى تبيع لوازم الأطفال .. والبوتيك الذى يعرض الغالى « إيجر » .. و .. و .. إن كل أسواق لندن تفتح المجال أمام السماسرة الذين يجذبون إليها الزبائن .. حتى المستشفيات والأطباء يعترفون بالسماسرة ويدفعون لهم العمولة .. والطب فى لندن أصبح يسمى « الطب السياحى » من شدة ازدحام المرضى العرب على المستشفيات والأطباء .. والتنافس بين دور العلاج جعلهم يعتمدون على عدد كبير من السماسرة .. إن كل شىء فى أسواق لندن يعتمد على مبدأ هات وخذ .. هات الزبون وخذ العمولة .. وقد أصبحت تطوف بمن يقع بين يديها من الزبائن على كل محال لندن ..

وقد وصلت إلى أن أصبحت صديقة لكل النساء البتروليات المقيمات فى فندق هيلتون .. تنتقل من جماعة إلى جماعة وتخرج بهن إلى الأسواق حتى أصبحت كأنهن يتنافسن على اجتذابها .. وكل جماعة تقدم إغراء أكثر .. دون أن يعرفن أنها تتقاضى عمولة على ما يشترين .. إنها فقط فتاة مصرية تسعى للدراسة فى إحدى جامعات بريطانيا .. وقد تعارفت إلى كثير من الرجال العرب الذين يصاحبون نساء فى لندن .. وكثير منهم حاولوا الوصول إليها .. لا لتصحبهم إلى المحال التجارية ولكن لتصحبهم إلى الفراش .. وهى حريصة على أن تحمى نفسها .. لا إخلاصا لزوجها مايكل ولكن فقط لأن هذا الجانب من الحياة لا يدخل فى تخطيطها .. وكانت تخطر على فكرها أحيانا أن تبدأ فى خطة من هذا النوع .. إنها تسمع أن الرجال العرب وخصوصا الذين وصلوا منهم إلى قمة عالية

كالأمراء والمشايخ تدفعهم الشهوة لامرأة يريدونها إلى الزواج بها .. زواجا قد يستمر ليلة واحدة .. أو أسبوعا واحدا .. حتى لو دفعوا له الملايين .. إنها تسمع عن امرأة لبنانية معروفة بجمالها وقيمة شخصيتها تزوجت أحد رجال الخليج العربى ليلة واحدة نظير أن يدفع لها مليونين من الدولارات ويشترى لها عمارة فى بيروت .. وتسمع عن امرأة أخرى تزوجت ستة مشايخ الواحد بعد الآخر .. وأقل ما وصلت إليه من الواحد منهم هو المليون دولار .. وكلها زيجات شرعية لا تخل بتعاليم الإجراءات الإسلامية حتى لو سميت زواج متعة .. وقد تستطيع سارة أن تبدأ فى مغامرة مع أحد من المشايخ تحقق لها بسرعة وبسهولة مثل هذه الملايين حتى لو بدأت بالتخلى عن زواج مايكل .. ولكن لا .. إنها تحس بمتعة الكسب كسمسارة وليست فى حاجة إلى أن تعطى زواجا للمتعة .. ولذلك كانت حريصة على ألا تجلس إلى أحد الأمراء أو المشايخ حتى لو لم يكن أميرا ولا شيخا إلا ومعه زوجته أو بناته أو أفراد عائلته من النساء .. وهذا الإصرار جعل الرجال يطمئنون إليها وإلى مصاحبتها لنسائهم .. ويطمئن إليها النساء ولا ينتظرن منها أن تخلو برجل لتخطفه منهن ولو اختطافا مؤقتا عابرا ..

وبعد أسابيع اكتشفت بذكائها ظاهرة غريبة يجب أن تحسب حسابها .. فإن استمرار مصاحبتها لأى مجموعة من النساء يبدأ فى تغلب إحساسهن بثرائهن على إحساسهن بصداقتها .. أى ينزل بها من المستوى الاجتماعى المتساوى الذى يجمعها بهن إلى مستوى هابط فى مستواه .. إنها فى مستوى عادى بينما هن فى مستوى صاحبات الملايين .. وربما كان استمرار معرفتها واختلاطها بهن يبدأ فى إطلاق تأثير لون بشرتها الأسمر الداكن على إحساسهن بها .. ربما يبدأن فى الإحساس بها كجارية .. خصوصا وأن بعضهن تصحبهن جوار فى مثل لونها .. والنظام الاجتماعى فى كثير من الدول العربية لا يزال يعترف بالجوارى ويحيطهن بكيان خاص متباعد عن كيان صاحبات العصمة والعفة ..

قد بدأت تحس بهذه الظاهرة بعد أن بدأت تتغير مظاهر معاملة صديقاتها من

نزيلات فندق هيلتون .. إن بعضهن بدأن يتعالين عليها والبعض بدأ يحادثها كأنه
يلقى الأوامر عليها كأنها فعلا خادمة أو جارية .. رغم أنها لا تمد يدها إليهن ولا
يعرفن شيئا عن العمولة التى تتقاضاها من المحال التى يشترين منها .. ومن
يدرى ..

ولهذا قررت ألا تقيم فى أى فندق من فنادق لندن أكثر من أسبوعين أو ثلاثة ..
ثم تنتقل إلى فندق آخر قبل أن تتبدل أحاسيس ومعاملة المجموعة النسائية التى
عرفتها .. وانتقلت فعلا من فندق هيلتون إلى فندق كلاريدج .. إنه أيضا يجمع
الكثيرين والكثيرات من النزلاء العرب .. ولكنها كانت حريصة على الاحتفاظ
بصداقة أى مجموعة تصادفها فى أى فندق .. وقد تقول ضاحكة عندما يسألونها
لماذا انتقلت من الفندق :

— إنهم فى الفندق الآخر يقدمون الدجاج المشوى ألذ وأطعم .. وأنا أسيرة
الدجاج المشوى .. وتتجاهل دعوة أى مجموعة من الصديقات إلى الانتقال
معها ..

وهى تتقدم فى الأعمال التى تقوم بها بسرعة .. ورصيد مكاسبها يرتفع ..
لقد وصلت إلى الآلاف فى شهر واحد .. وفى كل يوم تكتشف بذكائها شيئا لم
تكن تعرفه .. حتى مجرد الكلام مع الأصدقاء أو مع الباعة اكتشفت له كلمات
جديدة وأسلوبا جديدا .. بل إنها اكتشفت إجراء عاديا كان من المفروض أن
تكون على علم به منذ دخلت لندن أول مرة .. فإن المحال التجارية تضيف إلى
الثمن الذى تبيع به قيمة ضريبة تفرضها مدينة لندن لنفسها .. وهى ضريبة تصل
قيمتها إلى خمسة عشر فى المائة من الثمن المدفوع .. فإذا أبلغت المحل الذى تشترى
منه أنك ستحمل ما اشتريته إلى الخارج أعطوك إيصالا تقدمه إلى الجمرك
ويختمون عليه بأنك صدرت فعلا ما اشتريته .. وتعيد هذا الإيصال إلى المحل فيرد
إليك الضريبة التى دفعتها .. وأصبحت تزامل المشتريات اللاتى تصحبهن
وتستخرج الإيصالات من المحل .. ثم تصحبهن إلى الجمرك يوم سفرهن وتحصل

على خاتم على الإيصال ثم تحتفظ بهذا الإيصال معها .. ولم تكن تخفى شيئا .. بل
تصارح المشتريين بحقهم فى استعادة قيمة ضرائب لندن وستحصلها لهن وتحتفظ
بالمبلغ إلى أن يعدن إليها أو يرسلن لها من يأخذ منها لهن مبلغ هذه الضريبة .. ولكن
أغلبهن كن لا يعدن إليها ولا يرسلن عنهن مندوبا ولعلهن كن ينسين حقهن فى
هذه الضريبة التى تكون قد صرفتها من إدارة المحل واحتفظت بها فى رصيدها
بالبنك .. لقد كسبت مئات الجنيهات الاسترلينية باستيلائها على هذه
الضريبة .. وهى لا شك شريفة .. إنها لم تسرق ولم تخدع ولم تخف شيئا ..

وكانت كما اتفقت مع زوجها مايكل تذهب إليه كل يوم فى الساعة
الخامسة .. وتبقى فى انتظاره إلى أن يأتى إليها فى السادسة .. وتكون قد أعدت
له طعام العشاء أو تلهى نفسها بتنظيف الشقة وإعدادها ثم تذهب معه إلى لقاء
الشلة .. أو تعطيه متعة سريعة ثم تتركه يذهب وحده إلى الشلة .. إلا فى الليالى
المخصصة لأن تجتمع الشلة فى شقته فكانت تبقى لتعد لهم كل شىء إلى أن ينصرفوا
فى الساعة التاسعة ثم تبقى بين أحضان زوجها حتى الحادية عشرة أو الثانية عشرة
لتوفر له منتهى المتعة .. وقد يغلبها النوم فى إحدى الليالى فتقوم مفزوعة فى فجر
اليوم التالى وتجرى إلى الفندق قبل أن تكتشف صديقاتها غيبتها .. وقد حدث فى
إحدى الليالى أن دعتها مجموعة من الصديقات إلى تناول العشاء والسهر معهن ..
واعتذرت .. ولكنها لم تستطع الاعتذار عندما تلقت الدعوة الثانية .. إن
مطالب العمل تفرض عليها أن تقبل الدعوة فاعتذرت لزوجها مايكل .. إنها لن
تراه الليلة .. وقبل مايكل الاعتذار ببساطة .. إن لياليه تجمعه بأفراد الشلة ..
وتكررت هذه الليالى التى تغيب فيها عنه .. حتى قالت له :

— يجب أن تخصص ليلة تتفرغ فيها لى .. وأقضيها كلها فى أحضانك إلى
نهايتها .. إننى بذلك أستطيع أن أنظم عملى بحيث أطمئن إلى أن أعيش ليلة كاملة
معك .. ولو ليلة واحدة فى الأسبوع ..

وقال وابتسامته الغريبة تنسكب من بين شفتيه :

ـ السبت والأحد .. إن أحد أفراد الشلة يقضى كل ليلة سبت مع أسرته فى مزرعته خارج لندن .. وفرد آخر تعود أن يقضى يوم السبت والأحد نائما فى فراشه لا يتحرك .. وأستطيع أن أستغنى عن الشخص الثالث ليلة السبت وصباح الأحد ..

وأصبحت فعلا تقضى ليلة السبت وصباح الأحد مع زوجها بعيدا عن العمل .. إنها حريصة على الاحتفاظ به وحاجتها إليه تشتد .. إنها تكشف له كل تفاصيل عملياتها .. وتصارحه بكل المبالغ التى تصل إليها .. وهو الذى فتح لها حسابا باسمها فى بنك بركليز لتجمع فيه رصيدها .. وكان يفرح لها ويهنئها بالمكاسب التى تحققها .. ولكنه لم يكن يذهل أو يندهش من وصولها إلى هذه المكاسب .. وكان من يسألها أين كانت ليلة السبت وصباح الأحد تجيبه بأنها اتفقت مع أستاذ فى جامعة كامبردج أن تقابله فى إجازة كل سبت وأحد ليعدها ويساعدها فى اجتياز امتحان القبول فى الجامعة .. أو تجيب بأى كذبة أخرى فهى لا تعجز عن ابتكار الروايات ..

وقد صحبها مايكل فعلا فى أحد أيام الأحد وتناولا الغداء فى مدينة كمبردج بناء على طلبها .. كانت تريد أن ترى المدينة ما دامت تردد اسمها فى رواياتها .. وكانت هناك دائما مناقشات طويلة بين سارة وزوجها كلما واجهتهما فاتورة يجب دفعها بعد تناول طعام الغداء فى أحد المطاعم .. ومهما اشتدا فى هذه المناقشة فهما لا يكفان عن الضحك وتبادل النكات .. وقد وصلتهما فاتورة بعد أن تناولا طعام الغداء فى كامبردج .. وأطل مايكل بعينيه فى الفاتورة وقال وهو يلقى بها إليها مداعبا :

ـ عشرة جنيهات .. أنت خمسة وأنا خمسة ..

وقالت ضاحكة :

ـ إن الإسلام يفرض على الرجل ضعف الأنثى .. كما أن له ضعفها .. وأنت مسلم .. وسأتساهل وأدفع ثلاثة جنيهات وأنت سبعة ..

وقال صائحا مدعيا إصراره على حقه :

ـ إن الإسلام يوصى بالعدالة .. وأنت أكلت طبقين وأنا أكلت طبقا واحدا .. فأنت التى تدفعين الضعف .. أنت التى تدفعين سبعة جنيهات وأنا لا أدفع أكثر من ثلاثة ..

وقالت فى لهجة الفيلسوفة العالمة :

ـ إن العدالة ليست فى المساواة بين ما نأكله .. مادام كل واحد يستطيع أن يأكل كل ما يريد دون أن يحرم الآخر مما يريده .. إنما عدالة الإسلام هى عدالة فى كيان المجتمع الإنسانى .. وقد اعتبر الإسلام أن الرجل هو المسئول عن المرأة .. ولأنه المسئول فإنه يدفع على الأقل ضعف النفقات التى تجمعه بالمرأة .. ولذلك منحه أن يرث ضعف ما ترثه المرأة .. ولأنه المسئول فإنه يدفع على الأقل ضعف النفقات التى تجمعه بالمرأة .. وهذه العدالة لا تتحقق فى القوانين البروتستانتية المفروضة عليكم .. إنها قوانين تجعل الارث كله من حق الابن الأكبر .. أو الوريث الأكبر سنا .. ربما ليحتفظ بقوة تركيز القيادة العائلية .. أى القيادة الديكتاتورية .. وكما كان الأب هو ديكتاتور فى تحمل مسئولية الإنفاق على العائلة فإن الديكتاتور الذى يخلفه هو ابنه الأكبر .. تماما كنظام توارث العرش فى الدول المتأخرة التى لا تزال تقوم على النظام الملكى .. أى نظام الحكم فى بلدكم .. من يستطيع أن يجلس على العرش غير أول مواليد الملك أو الملكة .. إنها ديكتاتورية .. والإسلام ليس دين الديكتاتورية ولكنه دين الديموقراطية ..

وقال ساخرا من خلال ابتسامته التى تسبح على شفتيه :

ـ دعينى أراجع كل هذا الكلام الذى تقولينه إلى أن أقتنع به .. وإلى أن أقتنع ادفعى أنت وحدك الحساب كله ..

وفتحت حقيبتها ودفعت قيمة فاتورة الحساب كله .. فلم تكن هذه المناقشات تعبر عن أى خلاف بينهما .. أو عن طمع أحدهما فى استغلال الآخر .. إنها مجرد أحاديث للتسلية وقطع الوقت .. وهو يعلم أنها أصبحت تكسب مبالغ ضخمة .. إنها لا تخفى عنه شيئا من كل أرباحها التى تحققها ..

وهى تعلم أيضا أنه يتقاضى مرتبا عاليا من محلات هارودز علاوة على نسبة بسيطة من الأرباح .. ولكنها لا تعلم إذا ما كان له أى دخل خاص .. فهو لا يقول لها وهى لا تسأله .. ومسئولية كل واحد منهما عن الآخر تقوم على الحرية المطلقة لكل منهما .. هو يدفع عندما يريد .. وهى تدفع عندما تريد .. وقد دفعت أخيرا نفقات إعادة تأثيث الشقة كلها .. شقة الزوجية .. غرفة نوم جديدة .. لعله يحس بأنه أصبح له فراش ليس لأحد حق عليه إلا هى .. لعل ذلك يبعده عن شذوذه .. والصالون .. والمطبخ .. كل الشقة أعادت تأثيثها لعله يحس أن كل حياته قد تغيرت .. وكان يفاجأ بكل شيء جديد ولكن لا شيء يتغير فيه ..

وكانت أعمال سارة تتسع بسرعة كسرعة الصاروخ .. لم تعد صداقتها بالنساء العربيات مقصورة على نزيلات الفنادق فقد قدمتها إلى نساء الأمراء والمشايخ اللاتى كن يقمن فى بيوت خاصة اشترينها فى لندن أو استأجرنها .. وأصبحت كل منهن توصى الأخرى بأن تعتمد على سارة كلما أرادت أن تشترى .. واسمها أصبح يتردد فى الأسواق كلها .. سارة .. سارة .. سارة ..

ورغم كل هذا الزحام الذى أصبحت تعيشه فلم يكن لها أى زبونة مصرية .. بل كانت تتعمد تجاهلهن .. رغم أنها تعلم أن بعضهن يحمل ثروات ضخمة قد توازى ثروات نساء الأمراء والمشايخ العرب .. وهن يتهافتن على الشراء ويملأن الأسواق .. ولكنها تحس بأنها تخافهن .. تخاف أن يكشفن عن واقع التعامل معها .. وأنها تخرج بعمولة عن كل ما يشترينه وهى معهن .. تخاف أن يحاسبنها على أرباحها قبل أن يدفعن ثمن ما يشترينه .. وتخاف أن تحقد عليها إحداهن فتبلغ عنها السلطات المسئولة فى القاهرة وقد يصادرون ما تملكه هناك أو يقبضون عليها إذا فكرت يوما فى العودة أو يؤذين أهلها إلى أن تعود .. إن عقليات الوطن الواحد من السهل أن تكشف إحداها أسرار الأخرى .. ومن السهل أن تصل بأصحابها إلى الغيرة والحقد كأن كلا من هذه العقليات لا تهدأ إلا إذا انتصرت على الأخرى .. لذلك تباعدت عن المصريات اللاتى يفدن إلى لندن .. وقد تغالى فى

الترحيب وادعاء الحب والشوق لمن تلتقى بها منهن .. ولكنها لا تلبث أن تهرب منها وتختفى عنها فى عالمها الخاص .. عالم النساء العربيات الوافدات إلى لندن ..

وكان قد مضى ثلاثة شهور على إقامتها فى لندن .. ودق جرس التليفون فى غرفتها بالفندق فى مساء أحد الليالى ..

إنها القاهرة ..

وهى هدى هانم ..

كيف عرفت أين تقيم ..

ولكنها لم تستمر فى التساؤل وفرحتها تكاد تطير بها من فوق فراشها .. إنها تحس بأن الأفق البعيد قد اتسع حتى أخذها إلى القاهرة وهى لا تزال فى لندن ..

الحلقة السادسة

قالت هدى هانم وهى تحادث سارة بالتليفون فى لندن وصوتها ينطلق بفرحة مفتعلة :

ــ إن كل لندن أصبحت تتحدث عنك .. لا أحد يعود من لندن إلا وهو يتحدث عن سارة ..

وسارة مزهوة بأن هدى هانم تحادثها من القاهرة .. تحس كأنها انتصرت عليها حتى اضطرتها إلى السعى إليها .. ولكنها قالت كأنها تخفى عنها انتصارها عليها :

ــ أنا تلميذتك يا هدى هانم .. لا أساوى شيئا بجانب أستاذتى .. ولندن فى انتظارك دائما ..

وقالت هدى فى لهجة أكثر جدية كأنها تريد أن تختصر من دقائق المحادثة التليفونية :

ــ إنى لن أستطيع أن أسافر إلى لندن هذه الأيام .. إنى متعبة قليلا .. ولكن البوتيك فى حاجة إلى بضائع .. وفكرت فى أن اعتمد عليك فإنى لن أفقد أبدا ثقتى فيك وحبى لك ..

وقالت سارة بفرحتها :

ــ إنى ابنة هدى هانم .. وتلميذتك وخادمتك ..

وقالت هدى فورا كأنها لا تريدها أن تقاطعها :

ــ اتصلى بصديقنا عزت .. إن لديه قائمة بما نحتاج إليه .. وسأعطيك نمرة تليفونه ..

وأطلقت هدى رقم التليفون ، ثم قالت فورا وصوتها جاف ليس فيه أى رنة

مجاملة رقيقة :

ــ وسأتصل بك بالتليفون فيما بعد . مع السلامة ..

وأحست سارة كأن هدى ألقت سماعة التليفون فى وجهها .. وسقطت على فراشها متعجبة .. ولكنها لا تزال تحس بالزهو لأن هدى اضطرت إلى الاتصال بها .. ماذا تريد منها هدى .. إنها تريدها أن تتصل بالتليفون بصديقها عزت .. البكباشى عزت محروس الذى أصبحت تعرف أنه هو الذى يقوم بتمويل كل عمليات بوتيك القاهرة .. آسفة .. إنه عزت بيه محروس .. فقد أصبح يكره أن يلقب بلقب بكباشى .. بل ربما اعتبر كل من يواجهه بلقب بكباشى يتعمد معايرته بماضيه .. ولعله هو الذى أبلغ هدى هانم بمقرها الذى تقيم فيه حتى تتصل بها بالتليفون .. لعله يحيطها بجهاز مخابرات يجمع له كل أخبارها .. ولا شك أن عزت محروس عندما كان يحتل مركزا رئيسيا فى السيطرة على الحكم كان يعتمد على المخابرات .. وهو الآن أصبح بعيدا عن الحكم فما حاجته إلى المخابرات .. ربما كان كل من نشأ بعقلية عسكرية يعيش وهو يعتبر أن الحياة كلها ليست سوى معركة .. والمعركة تحتاج إلى مخابرات .. لذلك فكل منهم يحيط نفسه بمركز مخابرات .. حتى بعد أن يبتعد عن مسئولية الحكم .. ومعظم المقيمين فى لندن من المهاجرين السياسيين الذين هربوا من حكوماتهم ويحلفون أنها تلاحقهم أينما كانوا يحيطون أنفسهم بأجهزة مخابرات خاصة ..

وسارة لا تزال مستغرقة مع أفكارها وخواطرها وهى راقدة على فراشها .. ماذا سيكون بينها وبين عزت بيه .. إنه لا شك سيعطيها قائمة بما تطلبه هدى هانم لعرضه فى البوتيك ويكلفها بالشراء .. وطبعا ستكون المشتريات كلها من محال « مارك آند سبنسر » كما تعودت هدى هانم .. ثم بعد أن يتم الشراء يسلمها عزت بيه الشيك الذى يحمل قيمة الثمن .. كما سبق وأن حدث مع هدى هانم .. ولكنها عندما ستشترى من مارك آند سبنسر فستشترى باسم هدى هانم .. وهى مجرد مندوبة عنها .. فهل يدفع المحل العمولة التى تستحقها .. إن هدى هانم لم تعد

مجرد زبونة وافدة على هذا المحل .. إنها عميلة قديمة .. وقد يرفض المحل دفع عمولة سارة حتى لا يضيف قيمتها إلى الثمن الذى تدفعه هدى .. أى أنها ستقوم بالعملية دون أن تنتظر أى أرباح خاصة .. ستقوم بها مجاناً .. وهى لا تريد أن تقضى ولو يوما واحدا فى عملية مجانية .. إنها لا تزال فى البداية وكل عقلها يسيطر على كل حركاتها لتكسب .. وتكسب المزيد ..

ولمعت عينا سارة وقد خطرت على بالها فكرة جديدة .. ورفعت سماعة التليفون وطلبت القاهرة .. وعادت تحادث هدى هانم .. وقالت وهى تفتعل منتهى الرقة والحب :

ـــ لقد فهمت أن عزت بيه سيسلمنى قائمة المشتريات .. وثقى أن كل شىء سيكون معدا فى يوم أو يومين .. إلى تلميذتك الشاطرة .. ولكنى فكرت فى أن أضيف إلى القائمة بعض المشتريات على حسابى الخاص .. أرسلها لتباع فى البوتيك .. مع أى شروط تضعينها حضرتك .. فإنى فى حاجة إلى أن أمد أهلى فى القاهرة ببعض المبالغ .. إنى أخاف عليهم من أن يحتاجوا ..

وصاحت هدى هانم تنهرها :

ـــ ليس هذا وقت مثل كل هذا الكلام .. وإنى موافقة على كل ما تريدين إلى أن نلتقى ونتحدث .. مع السلامة ..

وألقت هدى بسماعة التليفون فى وجه سارة مرة أخرى .. لعلها كانت لا تريد أن يدور مثل هذا الحديث عبر التليفون حتى لا تسجله الرقابة التليفونية فى مصر وتتحرك الدولة لتحاسب عليه .. وقررت سارة أنها إذا أرادت أن تحقق هذا المشروع الذى خطر على بالها فلتجازف وتغامر معتمدة على تعاملها مع هدى هانم .. المشروع الذى يحقق لها كسبا فى القاهرة كما تكسب فى لندن ..

وفى صباح اليوم التالى اتصلت بعزت محروس .. وحدد لها فورا موعدا لتناول الإفطار معه فى أحد المطاعم العامة .. وقد وجدته كما التقت به أول مرة بصحبة هدى هانم .. جادا ووقورا ويحصر حديثه كله فى العمل .. وقد سلمها قائمة

طويلة بالمشتريات التى تريدها هدى هانم .. وقال لها إنه سيسلمها شيكا بالثمن بمجرد الانتهاء من اختيار المشتريات ..

وقالت كأنها تريد أن تكتشف سرا من أسرار المعاملات قد تحتاج إليه :

ـــ وكيف تسترد أنت ما تدفعه .. والأرباح أيضا ..؟

وأجابها وهو ينظر إليها كأنه يهددها :

ـــ هذا تعرفه هدى هانم .. ومتفق عليه معها ..

قالت كأنها من البراءة والسذاجة بحيث لا تعرف أن هناك أسرارا :

ـــ ومن سيحمل البضائع إلى القاهرة ..؟

قال وهو فى منتهى صرامته وجديته :

ـــ اتركى هذا لى .. المهم أن تنقلى كل المشتريات إلى الفندق الذى تقيمين فيه .. ولا تنقليها إلى هناك مرة واحدة .. شيئا بعد شىء .. وسأكون قد اتفقت مع عدد من المسافرين إلى القاهرة يتلقونها معهم على دفعات ..

وهمت سارة أن تسأل سؤالا آخر ولكن عزت محروس عاجلها قائلا :

ـــ إنى أعرف أنك تزوجت من إنجليزى موظف فى « محال هارودز » هل تطلعينه على كل العمليات التى تقومين بها ..

وقالت ضاحكة :

ـــ إنه لا يسأل وأنا أتطوع بالعرض .. وقد أكون قد صارحته بالكثير .. ولكن الكثير أيضا لم أصارحه به ..

وقال وهو يبتسم فى رجاء :

ـــ يهمنى ألا يعرفنى .. ولا يعرف شيئا عنى .. حتى لا أتكلف مسئوليات جديدة تثقلنى أكثر مما أعانيه من ثقل ..

وقالت وهى تربت على كفه الملقاة أمامها على المائدة :

ـــ اطمئن .. أنا نفسى لست فى حاجة لأن أعرفك ..

وفجأة أحست بيده تلف حول يدها وتضغط عليها .. وقد انفرد وجهه

وزالت عنه كل مظاهر الجدية والوقار .. وارتفع على شفتيه هذا النوع من الابتسامات التى تصطدم بها على شفاه كل الرجال .. وقال :

ـــ لقد كان الحديث كله عن العمل .. وعندى لك حديث آخر يريحنى ويريحك .. فلنلتق اليوم على العشاء ..

وفهمت بحكم خبرتها ما يعنيه .. إنه رجل كبقية الرجال .. ولعله لم يكن بينه وبين هدى هانم مجرد مشروعات العمل .. كان بينهما أكثر .. ولعلها لم تلحظ عندما رأته فى المرة الأولى أنه يمكن أن يكون مجرد رجل لأنه حرص على جديته أمامها لأنها كانت مع هدى .. وقالت ضاحكة وهى تسحب يدها من يده :

ـــ أفضل ألا نلتقى إلا بعد أن أنتهى من العملية .. وسأتصل بك بالتليفون يوميا لأبلغك الأنباء أولا بأول .. واعتذرت وقامت مبتعدة ..

وتفرغت ثلاثة أيام لشراء قائمة هدى هانم .. وأضافت إليها مجموعة تساوى خمسة آلاف استرلينى .. لعل هدى تحتفظ بأرباحها لها أو تمد بها أمها فى القاهرة .. إنها تخاطر رغم أنها فى شك لما ستنتهى إليه مغامرتها .. ثم التقت فى صباح اليوم الرابع بعزت محروس وأعطاها الشيك الذى ستدفعه ثمنا لما اشترته من « مارك آند سبنسر » .. وقال لها قبل أن تبتعد :

ـــ متى ستقبلين دعوتى إلى العشاء .. إنى لا أزال مصرا عليها ..

وقالت ضاحكة :

ـــ لنترك هدى هانم تحدد لنا لقاءاتنا ..

ولوى شفتيه وعاد واتخذ المظهر الجاد الوقور الذى يقلب وجهه المدنى إلى وجه عسكرى .. وأخذت سارة تطبق كل تعليمات عزت محروس .. ونقلت البضائع التى اشترتها إلى غرفتها بالفندق شيئا بعد شىء .. ثم اتصل بها وأبلغها أن ثلاثة سيأتون إليها فى الفندق : سيدتان ورجل .. كل بعد الآخر .. وأعطاها أسماءهم .. وطلب منها أن تتأكد من اسم كل منهم بأن يبرز لها جواز سفره .. وتقسم حقائب البضائع بينهم .. كل منهم حقيبتان .. وتضع على كل حقيبة

إشارة خفية تميز من حملها وتعهد بتسليمها فى القاهرة .. وتم فعلا كل شىء كما كان يتم أيام هدى هانم .. وانتهت العملية وسارة مجهدة وليست فرحة .. لقد ضاع عليها أسبوع كامل دون أن تحقق أى ربح خاص .. بل إنها حتى لم تذهب إلى الجمرك لتستولى على أوراق ضريبة لندن التى تكفل لها أن تضع يدها على خمسة عشر فى المائة من ثمن المبيعات المصدرة إلى الخارج .. ولكنها تحاول أن تواسى نفسها .. يكفى أنها أصبحت تتعامل مع القاهرة .. السوق التى هجرتها ولم تكن تدرى متى ستعود إليها ..

وبلغ بها التعب إلى حد أن بدأت تفكر فى الابتعاد عن لندن كلها .. وقالت لزوجها مايكل :

ـــ هل تعلم أين أريد أن نقضى إجازة السبت والأحد القادمين ؟ أريد أن أذهب إلى باريس .. وفغر مايكل فاه دهشة من المفاجأة .. وقالت سارة بسرعة :

ـــ إنى متعبة .. أريد أن أستريح من لندن .. وسأدفع أنا كل نفقات الرحلة .. لى ولك ..

وهدأت الدهشة على وجه مايكل وعادت ابتسامته ترقص بين شفتيه وقال :

ـــ إننا نستطيع أن نبدأ بيوم الجمعة .. حتى أريك كل باريس ..

وسافرا إلى باريس ..

وأحست سارة بقيمتها كامرأة إنجليزية لأنها وجدت أنها ليست فى حاجة إلى « فيزا » لدخول فرنسا .. يكفى أن جواز السفر يؤكد أنها إنجليزية زوجة إنجليزى .. فقد أصبح من حقها أن تتنقل بين الدول الأوروبية بلا إذن .. وعيناها تدوران حولها مع كل خطوة من خطواتها .. متطلعتين كأنهما تبحثان عن شىء .. تبحثان عن الأحلام التى عاشتها طوال حياتها .. أحلام باريس .. وكان أقوى ما يجذبها هى المعروضات النسائية .. الأزياء وأدوات التجميل .. وزوجها مايكل يدور بها طوال اليوم بين المحال .. المحال الكبيرة الشعبية كمحال

« جاليرى لافايت » .. والمحال الغالية المتعالية كمحال « كريستيان ديور » و « جاك فات » و « إيف سان لوران » .. وهى ترى جديدا فى كل شيء تراه .. حتى مجرد خط جديد فى فستان .. إن باريس ستبقى دائما عاصمة الابتكار بالنسبة لما تلبسه النساء .. ولكن ربما من كثرة ما رأت بدأت تحس أن كثيرا من الخطوط المبتكرة تبدو مفتعلة .. لا ترتفع بنسبة الجمال والفن .. كل ما ترتفع إليه هو التجديد والابتكار .. وبدأت تقتنع بأن فن التجديد فى باريس أصبح يقوم على الدوافع التجارية لا على دوافع الرقى بفن الجمال .. وربما كانت العقلية التجارية قد أصبحت تتغلب عليها هى الأخرى فإنها مؤمنة بأن الجديد هو الذى يجذب الزبائن .. حتى لو لم يكن فى هذا الجديد أى قيمة فنية .. يكفى أنه جديد ..

وقد اكتشفت أن زوجها مايكل معروف فى باريس .. ولا شك أنه سبق أن تردد عليها كثيرا .. وربما كانت له فيها أعمال .. ولكنه كعادته لم يسبق له أن حدثها عن باريس .. إنه لا يتكلم عن نفسه إلا ليجيب عن سؤال .. وقد أخذها بمجرد وصولها إلى فندق صغير فى شارع متفرع من شارع الشانزليزيه الكبير .. فندق محدود فى عدد الغرف كأنه بنسيون .. وقد استقبله كل من العاملين فى الفندق بترحاب كبير وتبادل القبلات مما يؤكد أنه زبون قديم معروف .. ثم إنه وهو يطوف بها المحال ورغم أنهما يطوفان لمجرد الفرجة والتسلية دون أى نية لممارسة أى عمل كان يأخذها داخل المحال ليعرفها بكبار المسئولين عنه .. عرفها بأحد مديرى محال « جاليرى لافايت » .. وبموظف كبير فى « كريستيان ديور » .. و .. و .. كأنه على علاقة عمل بباريس كما يعمل فى لندن .. وسارة سعيدة باكتشاف أهمية زوجها وصداقاته العالمية .. إنها تستطيع أن تستغله فى باريس كما تستغله فى لندن .. وقيمتها هى شخصيا مرتبطة بقيمة زوجها .. بل إنها فوجئت به فى بداية إحدى الليالى وهو يعتذر لها بأنه سيتركها وحدها ويقضى جزءا من الليل مع أصدقاء .. إن شذوذه أيضا يصل إلى باريس .. وله شلة هنا

كما أن له شلة هناك .. واستجابت إلى إعتذاره بسرعة كما عودته .. وهى تحس كأنها تريد أن ترتاح منه ولو ساعات تطوف بها شوارع باريس وحدها ..

وكان عليهما أن يعودا إلى لندن بعد ظهر يوم الأحد .. واكتشفت سارة أنها لم تدفع حساب الرحلة وحدها .. لقد دفع زوجها مايكل قيمة أقامتهما فى الفندق .. وكان يدفع أحيانا حساب فواتير المطاعم التى يترددان عليها .. بل إنه اشترى لها من حى مونبارناس .. حى الانطلاقات الفنية .. قرطا كبيرا فى حجم كف اليد .. ليس فيه شيء من قيمة المصاغ الغالى .. ولكنه حلية تحمل مظهر الشذوذ .. وهو يضعف دائما أمام الشذوذ .. وقد اشترت له هى الأخرى قميصا من الصوف ردا على هديته .. لقد أنفق أكثر .. إنها لم تربط علاقاتهما بحساب أى أرقام ..

وعادت سارة إلى لندن وتفرغت تفرغا كاملا لاصطياد الزبونات العربيات التى تخرج بهن إلى المحال ليشترين وتستولى على العمولة .. وقد أصبحت أحاديثها تشمل حتى معروضات باريس .. وتستطيع أن تستورد لهن من هناك ما يردن .. أو حتى تصاحبهن إلى هناك لو أردن .. وزوجها يشترك معها فى الاتصال بأى تاجر من تجار باريس .. لقد أصبحت كأنها سمسارة عالمية ..

وقد التقت فى إحدى الدعوات التى توجهها إليها صديقاتها العربيات بأول مصرى تلتقى به فى لندن وتقوم بينهما فورا صداقة .. مجرد صداقة .. إنه تاجر الجواهر المعروف فى مصر عبد النور رأفت .. وقد كانت تسمع عنه كثيرا وعن روعة ما يقدمه من الجواهر .. ولكنها لم تكن تعرف عنه أنه يمثل هذا التواضع والبساطة مع ثقته الكاملة بنفسه حتى أنه يتحدث كأنه واثق من أنه سيقنع محدثه .. ويقنعه فعلا .. أى ينتصر دائما .. وكانت الدعوة إلى العشاء تجمع عائلتين عربيتين رجال ونساء كل عائلة .. وبسرعة جمعها الحديث مع عبد النور رأفت .. وأحست كأن كليهما يقوم بنفس عملية الآخر .. عملية اكتساب الزبائن .. وربما كان مجرد وجودهما معا فى دعوة عربية يؤكد لها اشتراكهما فى

عمل واحد .. وقد بلغ اطمئنانها إليه إلى حد أنها قبلت دعوته لها إلى الغداء فى اليوم التالى ..

وجمعتهما الصراحة وهما وحدهما .. إنه يحادثها متباهيا عن الصفقات التى حققها ببيع الجواهر وأسلوبه فى تحقيق كل صفقة .. إنه لا يغش أحدا ولا يضلل أحدا .. ولكنه يصل بالإقناع إلى منتهى حقه .. ووجدت نفسها تحدثه هى الأخرى عن الصفقات التى حققتها مع المشتريات العربيات اللاتى تجرهن إلى المحال التى لها منها عمولات .. ولم تعرض عليه طبعا أن تأخذه وتطوف به إذا كان فى حاجة إلى الشراء .. فقد علمت منه أنه يعرف كل محال لندن ويعتبر زبونا لديها ليس فى حاجة إلى سمسار .. ولكنه هو الذى قال لها إنه سيذهب إلى محال « هارودز » لشراء بدلة كاملة ولوازمها .. وذهبت معه .. ووقفت معه وهو يقلب فى المعروضات دون أن تنطق بأى كلمة أو تغريه بشراء أى شىء إلا إذا سألها رأيها .. وبعد أن انتقى ما يريده نظر فى فاتورة الثمن التى قدمها إليه البائع ثم التفت إليها قائلا فى دهشة :

ـــ هل لك عمولة فى هذه الصفقة .. إن الفاتورة تسجل مبلغا أكبر مما قدرته ..

وقالت وهى متلجلجة كأنها تخافه :

ـــ حتى لو كانوا قد حسبوا لى عمولة فإنى مستعدة أن أتنازل عنها ..

وجذبها من يدها إلى الرئيس المشرف على الجناح وقال له فى لهجة آمرة :

ـــ إنى لم أدخل هارودز بناء على دعوة هذه السيدة .. إن « هارودز » يعرفنى قبل أن يعرفها .. فأرجو تصحيح هذه الفاتورة ..

وقالت سارة كأنها تدافع عنه :

ـــ هذا صحيح ..

وبسرعة أخذ الموظف المختص ورقة الفاتورة وأعادها له بعد أن رفع منها قيمة العشرة فى المائة التى كانت مخصصة لسارة ..

وهدأ عبد النور .. وسارة توالى الاعتذار وتؤكد أنها لم تكن تقصد أن تكسب من ورائه شلنا واحدا .. وعبد النور دهش من اعتذارها .. إنه واثق أنها لم تكن تقصد .. وإنما المحل كان مقيدا باتفاقاته معها .. وعادا كما كانا يجمعهما فكر واحد فى سوق واحدة .. إلى أن قال لها إنه مسافر صباح الغد عائدا إلى القاهرة .. وينتظر أن يلقاها هناك .. أو على الأقل يحرصان على التجاوب بينهما إلى أن يلتقيا .. ثم قال :

ـــ من يدرى .. ربما أحتاج إليك فى يوم من الأيام ..

وقالت ضاحكة مودعة :

ـــ إنى دائما فى خدمتك .. لقد بهرت بك ..

وكانت فعلا مبهورة بنجاحه فى تحقيق ملايينه من الاتجار بالمجوهرات .. ومبهورة بوعيه الكامل بكل أسرار المهنة وأسرار السوق ..

وتركته وآمالها تتردد مع خيالها .. من يدرى ربما يحتاج إليها فعلا فى يوم من الأيام ..

وانطلقت خلال الأيام تجمع المزيد .. ورصيدها يرتفع إلى الآلاف تقترب من المليون .. إنها تستطيع أن تقيم فى القاهرة بوتيكا خاصا بها .. تكون هى مالكته وجانية أرباحه .. لن تعود إلى هدى هانم .. بل من يدرى ربما كانت هدى هانم هى التى تلجأ إليها .. بعد أن تراها تستكمل آلاف لندن بملايين القاهرة .. ولكنها رغم مرور ما يقرب من عام على وجودها فى لندن فهى تحس أنها فى حاجة إلى دراسة أوسع للأسواق .. وقد استوعبت دراسة سوق لندن .. وقد استفادت كثيرا من دراسة سوق باريس .. فلماذا لا تحاول دراسة سوق أخرى لها أهميتها وأثيرة على المشترين العرب .. سوق جنيف ..

وقالت لزوجها مايكل فى دلال :

ـــ هل تعلم أين أريد أن نقضى السبت والأحد فى الأسبوع القادم .. أريد أن نكون فى سويسرا .. فى جنيف ..

وفغر مايكل فاه دهشة وعاجلته مرددة ما تعودت أن تطمئنه به :

— ستكون الرحلة كلها على حسابى .. إلى صاحبة الدعوة .. وأدعو
معى .. وهدأت دهشة مايكل .. وقال منطلقا بفرحة أقرب إلى فرحة الأطفال
— إننا نستطيع أن نقضى كل إجازة الكريسماس هناك متزحلقين عل
الجليد .. وقالت كأنها أم آمرة :

— الكريسماس بعد شهرين .. وأنا أريد أن أذهب إلى هناك هذا الأسبوع
إنى لا أحب التزحلق .. وإياك أن تزحلقنى ..

وكانت سارة تعانى فعلا فى فصول الشتاء فى أوروبا .. إنها لا تستريح فى الجو
البارد .. وتقضى شهورا طويلة تقاوم البرودة وتحس أنها تعيش سجينة داخل
تكييف آلات الهواء .. تحس كأنها ابتعدت عن السماء وأن الله تخلى عنها وتركها
لآلات من صنع الإنسان .. بل إن دموعها كانت تنهار أحيانا حسرة على أيام
الدفء اللذيذ الذى يمدها بفيتامينات الإنعاش والقدرة على التنطيط ..

وسافرا إلى جنيف فى نفس الأسبوع .. واستطاع مايكل أن يحصل على إجازة
يوم الجمعة ليقضيا هناك ثلاثة أيام .. ورغم أن الشتاء لم يكن قد وصل إلى قمته
إلا أن سويسرا كلها كانت تعيش داخل آلات تكييف الهواء .. إنها لا تشعر بالبرد
ولكنها أيضا لا تشعر بالجو .. إن الآلات المكيفة تلفها داخل الفندق .. وداخل
السيارات الأجرة .. وداخل المحال التجارية .. وداخل المقاهى والمطاعم ..
تحس كأنها لا تجد مكانا تتنفس فيه .. ورغم ذلك فقد كانت مندفعة فى محاولة
اكتشاف مدينة جنيف .. وخيل إليها أنها مدينة أهدأ من لندن وباريس .. ليس
فيها هذا الزحام الأهوج العنيف .. بل خيل إليها أنها مدينة أرق من لندن
وباريس .. كل شىء فيها مهذب .. حتى نظرات الرجال الذين يتحدثون إليها
نظرات لا ينقصها الاحترام .. إنها لا تحس فى أسواق جنيف بمظاهر الاصطياد
الجشع والتحايل الدنىء لاصطياد الزبائن كما تحس به فى لندن وباريس ..

وكانت تركز اهتمامها على اكتشاف أسواق المطالب النسائية فى جنيف ..
اكتشفت أن سويسرا كلها لا تنتج أى مطلب نسائى .. لا تنتج الفساتين

والملبوسات من أى نوع .. ولا أدوات التجميل .. وكل ما يعرض فيها مستورد
من دول أخرى .. إن كل الإنتاج السويسرى منحصر فى صناعة الساعات
والفراء وإقامة البنوك المالية .. إن أكبر المبالغ المالية فى العالم كله التى تخص الأفراد
توضع فى بنوك سويسرا خصوصا الأموال المهربة .. والمهربون من بينهم كثير من
رؤساء الدول .. وخصوصا دول العالم الثالث .. ومن يدرى .. ربما كانت
سويسرا .. ومن يدرى أيضا .. ربما نقلت هى نفسها رصيدها الذى تحتفظ به
فى بنوك لندن إلى بنوك جنيف .. فقد علمت أن أهم ما يميز بنوك سويسرا هو
احتفاظها الحاسم بالسرية .. لا يمكن أن تكشف عن أى سر لأى متعامل معها فى
حين أن بنوك العالم كله معرضة للضغط السياسى الذى قد يدفعها إلى الكشف
عن أسرار هذا العميل أو ذاك .. حتى أنه لو مات عميل لأحد بنوك سويسرا دون
أن يكون قد سجل اسم وارثه مسبقا فإن البنك يرفض تسليم رصيده والكشف
عن أسراره لأى شخص يدعى أنه وارثه .. حتى لو كانت الحكومة نفسها ..
ويظل البنك محتفظا برصيد العميل المتوفى لمدة عشرين عاما .. وقد يظهر خلالها
من يثبت له حق الإرث .. وإلا انتقل الرصيد بعد العشرين عاما إلى ميزانية البنك
نفسه .. أى أصبح الرصيد ملكا للبنك .. وسارة مقتنعة منذ الآن أنها فى حاجة
إلى الاحتفاظ بسرية رصيدها حتى تطمئن إلى الاحتفاظ به ملكا لها مهما صادفها
من محاولات الاستيلاء عليه .. لذلك بدأت تفكر فى نقل رصيدها إلى بنوك
جنيف ..

وكانت وهى تمر على المعروض من أزياء النساء تستطيع بخبرتها أن تكتشف
فورا من صنع كل قطعة .. هذه قطعة من صناعة جاليرى لافييت فى باريس ..
وهذه من صنع كريستيان ديور .. وهذه من صنع محلات سلفردج فى لندن .. بل
إنها وجدت معروضات متأكدة من أنها استوردت من كل الدول الأوروبية بل ومن
أمريكا .. والمحل السويسرى لا يخفى مصدر الاستيراد .. إن كل قطعة تحمل اسم
البلد الذى صنعت فيه .. ويطير خيال سارة بها ربما لو افتتحت « بوتيكا » فى

جنيف لكان من السهل عليها أن تزحمه بالمستوردات من الخارج .. إن الاستيراد أسهل من الصناعة .. بل إن الاستيراد من الخارج أسهل من التعامل المحصور فى الداخل .. بل إن من الأسهل عليها أن تفتح البوتيك فى جنيف من أن تفتحه فى لندن أو فى باريس .. فإن لندن وباريس ازدحمتا بالمحال التجارية التى أقامها التجار اللبنانيون والسوريون للتعامل مع السياح العرب .. ولن يتركوها تقيم هى الأخرى بوتيكا تنافسهم به .. إنهم ينافسونها حتى فى عمليات السمسرة مع الزبائن العرب ووصلوا إلى حد التشهير بها حتى يبعدوها عن ثقة زبائنها .. ومن الأفضل لها أن تبتعد عنهم فى لندن وباريس وتفتح البوتيك فى جنيف .. قد يكون فى جنيف أيضا عدد من اللبنانيين أو السوريين الذين يمكن أن ينافسوها .. ولكن كل شىء محترم فى جنيف حتى المنافسة .. محترم بحكم القانون وبحكم عقلية المسئولين لا بحكم أخلاق المتنافسين ..

ولكن .. العرب لا يقبلون على سويسرا إقبالهم على لندن وباريس .. والأسواق الأشد اجتذابا بين الطبقة الراقية فى مجتمعات كل الدول العربية هى أسواق لندن وباريس .. كل امرأة تتباهى فى بلدها بأنها اشترت من لندن أو من باريس .. ولا يخطر على بالها التباهى بالشراء من سويسرا حتى لو كانت قد اشترت منها فعلا .. ورغم هذا فإن نساء القمة يفضلن بأن تكون لهن أسواقهن الخاصة .. إنهن يتعمدن الابتعاد عن الضجة التى فى لندن وباريس .. ليختبئن فى هدوء جنيف بعيدا عن الضجيج وعن كلام الناس .. وهن يشترين فى جنيف نفس ما يباع فى لندن وباريس ويشترين بثمن أعلى .. فإنهم فى سويسرا يرفعون ثمن المستوردات .. ورغم ذلك يشترين لأنهن فى قمة الثراء ولا يهمهن أن يدفعن أكثر مهما ارتفعت الأسعار ..

وقد عادت إلى لندن وهى هائمة فى الهدوء المستقر المنظم داخل جنيف .. وهو هدوء شمل حتى زوجها مايكل .. إن له أصدقاء ومعارف فى جنيف أيضا .. ولكنهم عدد قليل من بعض مديرى المحلات الكبيرة هناك .. وقد قدمها لهم

واستقبلوها فى برود رسمى كأنهم لا يعطونها أكثر مما تفرضه الرسميات .. ولم يهللوا لها ولم تلتق بأحد منهم يحاول التهامها بنظرات عينيه كما كانت تستقبل فى لندن وباريس .. بل إن زوجها مايكل نفسه لم يتركها ولا ساعة ليكون وحده يعيش شذوذه .. ليس له شلة من الشواذ فى جنيف تعوضه عن شلته فى لندن والشلة التى عاش بها ساعات وتركها وحدها فى باريس ..

وقالت له :

ــ لقد استرحت فى هدوء أسواق جنيف وبهرت بها ..

وقال ضاحكا ضحكته الخليعة :

ــ إن جنيف بأهلها وشوارعها مشهورة بثقل الدم وبالبرود ..

وقالت معترضة :

ــ لم أشعر فيها بالبرود ولا بثقل الدم . لقد أخذتنى كلى إلى الشعور بالأمان والاستقرار .. حتى وأنا أفكر فى مستقبلى .. وقد بدأت فعلا أفكر فى مشروع إقامة بوتيك للزبائن العرب فى جنيف إذا وجدت أن رصيدى فى البنك يكفى ..

وقال ساخرا :

ــ لن تستطيعى إقامة مشروع تجارى فى سويسرا إلا إذا كنت زوجة لمواطن سويسرى وحتى تكونى سويسرية .. والذى أعلمه أنك زوجة رجل إنجليزى وأنك إنجليزية ..

وصاحت كأنها تفيقه من غبائه :

ــ لقد دخلنا محل الخردوات الذى أقامه برهوم المرعشلى وهو سورى وليس مواطنا سويسريا ..

وقال من خلال ابتسامته :

ــ لا شك أن المحل أقيم باسم أحد مواطنى سويسرا .. فالقانون هناك يحرم الغرباء من إقامة محلات تجارية ..

وقال وهو يشهق فى ملل :

— ولماذا لا تقيمين محلا فى لندن .. وأين أذهب أنا إذا أقمت أنت فى جنيف ؟

وقالت فى دلال وهى تقترب بخدها من شفتيه :

— لقد سبق أن قلت لى إنك تحلم بأن تعيش فى غربة تكتشف فيها المجهول .. فتعال نعيش فى غربة جنيف .

وأطلق شفتيه تلعقان فى شفتيها كأنه لا يستطيع مقاومة صف اللؤلؤ الذى يبرق بينهما .. ثم ابتعد عن شفتيها وهو يلهث من عنف المتعة وقال وهو لاهث :

— دعينى أفكر .. إن لى معارف فى جنيف يمكن أن أتصل بهم وقد أقنعهم .. والإقامة فى جنيف مغامرة فعلا تستحق أن نتمتع بها ..

واتفقا على أن يبدأ فعلا فى دراسة المشروع .. وهى تحس بأنها لا تغامر بنفسها بالانتقال هى وزوجها إلى جنيف ولكنها تغامر بنقل رصيدها الذى جمعته فى لندن إلى هناك ..

* * *

وفى نفس اليوم اتصل بها عزت محروس بالتليفون وقال لها إنه قد وصله خطاب من هدى هانم يحمل رسالة لها .. وقابلته فى اليوم التالى على الإفطار فى أحد المطاعم .. وهو يغالى فى حديثه وفى مظاهر وقاره ربما تعمدا بعد أن رفضت محاولته الوصول إلى أكثر من التعامل معها باسم هدى هانم .. ولم تكن هدى قد أرسلت لها رسالة مكتوبة ولكنها رسالة شفهية يبلغها بها عزت محروس .. إن هدى قد باعت البضائع التى أرسلتها سارة من حسابها الخاص زيادة على البضائع التى وردت فى القائمة .. وقد حسبت لها ثمن كل قطعة كما افترضتها .. وأضافت إليه خمسين فى المائة من مبلغ الربح الذى حققه البيع .. أى أن هدى احتفظت لنفسها بنصف أرباح البيع باعتبارها صاحبة الدكان .. كما أنها قررت أن تحتفظ لسارة باثنين فى المائة من ثمن المبيعات التى اشترتها لها من لندن .. والحساب الختامى يسجل أن هدى تحتفظ بثمانية آلاف جنيه مصرى لسارة .. فهل تسلم هذا المبلغ إلى أمها أم تحتفظ به لديها فى انتظار الأوامر ..

وفغرت سارة فمها وكأنها صعقت بعصية لم تكن تحسب حسابها .. كيف يكون كل ما تستحقه من هدى مقصورا على ثمانية آلاف جنيه مصرى .. إن البضائع التى أرسلتها إليها لتبيعها دفعت فيها من رصيدها خمسة آلاف استرلينى .. أى ما يساوى عشرة آلاف جنيه مصرى بسعر السوق .. وربما باعتها هدى بعشرين ألفا .. أى أن سارة تستحق فيها خمسة عشر ألفا على الأقل .. هذا بجانب ما تستحقه من قيمة عمولتها على البضائع التى اشترتها لحساب هدى .. وضغطت سارة على أعصابها حتى تهدأ وقالت لعزت محروس ساخرة :

— لماذا لا ترسل لى أرباحى إلى هنا .. ثمانية آلاف استرلينى ..

وقال عزت فى لهجته العسكرية :

— هذا مستحيل .. وأنت تعرفين أنه مستحيل ..

وقالت وهى لا تزال ساخرة :

— لقد اشتركت فى العملية بالاسترلينى فلترد لى حقى بالاسترلينى ..

وقال لها عزت فى عنف :

— قلت لك مستحيل .. إن جنيهات القاهرة لا علاقة لها بجنيهات لندن ..

وقالت سارة وقد بدأت تحس كأن دماءها تغلى فى عروقها :

— سأكتب إليها خطابا ..

وفجأة أحست كأن خاطرا جديدا بدأ يداهمها .. إن من عادتها أن تتلقى خواطرها فجأة .. وقالت مستطردة وهى تقاوم دماءها التى تغلى :

— لا .. لا يكفى أن أكتب لها خطابا .. سأسافر إليها فى القاهرة ..

وقال عزت محروس وهو دهش من قرار سارة السفر إلى القاهرة :

— إن هدى أرسلت قائمة مشتريات ترجو أن تشتريها لها ..

وقالت سارة وهى تشد القائمة التى فى يد عزت محروس :

— سأشتريها .. وسأسلمها لك لترسلها إليها كما سبق أن حدث .. وبعدها سأكون أنا فى القاهرة .. لا أدرى متى .. ولكن قل لها أن تنتظرنى ..

وخرجت سارة إلى شوارع لندن كأنها تهرب من البكباشي عزت محروس .. ودماؤها لا تزال تغلي نقمة على هدى هانم وعلى مموّلها عزت محروس .. كيف تجرؤ على الاستيلاء على حقوقها بعد كل هذه الخدمات التي قدمتها إليها .. ربما أرادت أن تصد محاولتها أن تبيع في القاهرة لحسابها .. تريد أن تقنعها بأنها لن تحقق أرباحا في القاهرة .. أو ربما كانت هدى لها ضمير كبقية ضمائر التجار المصريين .. ضمائر لا تعترف بحقوق أحد لديهم إلا بعد أن يدخلوا مع صاحب الحق في معارك .. وستدخل معركة مع هدى هانم لتصل إلى كل حقوقها .. هذه هي طبيعة السوق التجارية المصرية ..

وهدأت حدة الغيظ مع خطواتها في الشوارع ولكنها لا تزال مصممة ومقتنعة بأن تسافر إلى القاهرة ولو أياما تقضيها بعيدا عن لندن .. وستترك زوجها مايكل يستكمل دراسته واتصالاته حول مشروع افتتاح « بوتيك » في جنيف .. وابتسمت ساخرة بينها وبين نفسها .. من يدري .. ربما وجدت في القاهرة ما يغريها بتغيير خطتها وإقامة « البوتيك » فيها بدلا من أن تقيمه في جنيف ..

ووجدت فكرها وخيالها يسحبانها إلى أمها وإخوتها الذين ستراهم في القاهرة .. لقد كانت دائما على اتصال بهم عبر التليفونات وتبادل الخطابات .. وكانت ترسل إليهم بين حين وآخر الهدايا ومبالغ من الأموال ، كلما وجدت من يحملها إليهم .. ولكنها طوال هذا العام لم ترهم .. بل لم يخطر أي إلحاح على عواطفها لتذهب إليهم وتراهم .. وهي معذورة .. فإنها لم تتركهم لتعيش في لندن كزوجة .. ولكنها تعيش عاملة تسعى إلى تحقيق أحلامها .. والعمل يبرر الغربة عن الأهل ويجعلهم يتحملونها في صبر ..

وبدأت تشتري البضائع التي تحددها قائمة هدى هانم .. تشتري دون أن تبذل مجهودا في الاختيار أو المجادلة حول الأسعار .. بل إنها تركت القائمة لأحد موظفي مارك آند سبنسر ليجمع ما فيها دون أن ترهق نفسها بالتدخل .. واتصلت بعزت المحروس ليدفع الأثمان ثم أرسل لها من يحمل البضائع إلى

القاهرة .. ثم عادت واتصلت به قائلة :

— لقد حجزت على طائرة صباح الغد لأسافر إلى القاهرة .. فأرجوك أن تتصل بهدى هانم لتكلف مفتش الجمرك عادل شاهين ليكون في انتظاري ..

وكانت قد حملت معها هدايا ثمينة غالية لأمها وأخواتها تخشى ألا تقع عليها لدى رجال الجمرك ..

الحلقة السابعة

كانت سارة مسافرة إلى القاهرة ومعها حقيبتان كبيرتان جمعت فيهما كثيرا من الهدايا .. وقد تركتهما لمخازن جمرك القاهرة .. ولكنها كانت تحمل فى يدها حقيبة صغيرة جمعت فيها هدايا من المصاغ الغالى لأمها وأختيها .. علاوة على حقيبتها الخاصة المعلقة على كتفها .. وهى تذكر أن هدى هانم كانت قد نصحتها بأن تضع المصاغ الغالى فى الحقيبة الكبيرة لا فى الحقيبة الصغيرة فإن مفتشى الجمرك لا يبذلون جهدا كافيا لتفتيش الحقائب الكبيرة ويركزون اهتمامهم على الحقائب الصغيرة .. ربما لأنها الأسهل فى تفتيشها .. ولكن سارة لم تستسلم لنصيحة هدى هانم .. إنها تريد أن تبقى مطمئنة على المصاغ الذى تحمله لأمها وأختيها . لذلك احتفظت به فى حقيبة صغيرة تحملها فى يدها . وهى تعتمد على المرور بها من الجمرك ما دامت هدى هانم ستوصى مفتش الجمارك عادل شاهين ليكون فى استقبالها ..

وكانت تجلس على أحد مقاعد الدرجة الأولى فى طائرة شركة مصر .. وقد دفعت ثمن التذكرة كاملا ولم تحاول الاتصال بالمسئولين لتركب مجانا أو لتخفيض الثمن .. فى حين أنها تعلم أن أغلبية ركاب الدرجة الأولى فى شركة مصر يسافرون مجانا أو على حساب المؤسسات التى يمثلونها .. فكلهم دائما من الشخصيات المعروفة .. وقد جمعتها المصادفة بأن تجلس بجانب شخصية مشهورة جدا وهو الأستاذ شاكر المرصفلى الكاتب السياسى ورئيس تحرير صحيفة « النهضة » .. إنه لا شك صاحب نفوذ كبير .. وقد قدمت نفسها له ورحب بها فى لهفة مأخوذا بجاذبيتها .. ولكنها لهفة العواجيز فلا شك أنه تجاوز الستين من عمره .. وقضت ساعات الطيران كلها والحديث

لا يتوقف بينهما .. إلى أن هبطا القاهرة ودخلا الجمرك .. ودارت بعينيها تبحث عن المفتش عادل شاهين الذى يعمل لحساب هدى هانم والذى تنتظر أن تمر أمامه بحقائبها فلم تجده .. وبسرعة التصقت بالأستاذ شاكر المرصفلى .. تسير وراءه خطوة بخطوة .. إلى أن مرت حقائب الأستاذ شاكر أمام موظف الجمرك فأسرعت ودفعت الحقيبة الصغيرة التى تحملها فى يدها لتبدو كأنها مع حقائب الأستاذ شاكر .. وقد لاحظ الأستاذ شاكر ما تفعله .. وابتسم دون أن يهتم بإبعاد حقيبتها عن حقائبه .. إنه لا يعتبر أنها تعرضه لأى احتمال يغضبه .. فإذا فتح موظف الجمرك حقيبتها فإنه يستطيع أن يعلن أنها ليست حقيبته إنما حقيبة هذه السيدة .. وإن ترك موظف الجمرك حقيبتها تمر بين حقائبه دون تفتيش فإنه سيكون سعيدا بإحساسه بأهمية شخصيته بالنسبة لهذه المرأة ويعتبر بأنه صاحب فضل عليها بأن تركها تستغل هذه الشخصية لتحقيق أهدافها .. وقد استقبل موظف الجمرك الأستاذ شاكر باحترام كبير وترك حقائبه كلها تمر بسرعة بلا تفتيش ومن بينها حقيبة سارة الصغيرة .. ولم تكن سارة قد ابتكرت هذه الوسيلة فى الهروب بحقيبتها من التفتيش ولكنها كانت تعرف أن كثيرا من المسافرين يستغلون الشخصيات الهامة التى يلتقون بها مصادفة فى الطائرة لتهريب حقائبهم مع حقائب هذه الشخصيات .. ربما كان معظم هذه الشخصيات .. الهامة تعود إلى القاهرة وحقائبها تجر وراءها حقائب ليست لهم ..

وجاءت بقية حقائب سارة الكبيرة تمر أمام مفتش الجمرك وقلبها لا يزال يرتعش .. ترى كم سيفرض عليها من الضرائب الجمركية .. ولكن المفتش رفع عينيه إليها وربما كان ضعيفا أمام اللون النسائى الأحمر الغامق .. أو لعله غرق فى صف اللؤلؤ الذى تبرزه ابتسامتها .. فأشر على حقيبتها بسرعة دون أن يحاول فتح إحداها .. وهو يهمس : مع السلامة ..

وجرت سارة لتلحق بالأستاذ شاكر المرصفلى والتقطت حقيبتها الصغيرة من فوق العربة التى تجر حقائبه وهى تعطيه كل ابتسامتها كأنها تقبله بها قائلة :

— أنا آسفة .. وشاكرة .. وسأتصل بسيادتك فى التليفون لأكرر شكرى ..

وقال وهو يحتضنها بابتسامته :

— اتصلى بمكتبى فى الجريدة .. وسأعطيك رقم تليفونى الخاص السرى بعد أن أسمع صوتك ..

وخرجت من المطار .. ولم يكن أحد فى انتظارها فهى لم تبلغ العائلة بموعد وصولها .. وهدى هانم التى تعرف الموعد لم ترسل لها مفتش الجمرك الذى فى خدمتها ليكون فى استقبالها .. وطبعا لم تكن هى نفسها فى استقبالها .. ورغم الغيبة الطويلة فقد واجهت كل ما حولها كأنها لم تغب عن مصر قط .. إن الفرق كبير بين ما يحيط بها هنا وما كان يحيط بها هناك فى أوروبا .. طابع الشوارع .. وأشكال الوجوه المارة .. ودرجة حرارة الجو .. ورغم ذلك ففرحتها بالعودة تغطى كل إحساسها بهذه الفوارق .. فرحتها بالعودة إلى أمها وكل ما حولها كأنه يستكمل صورة أمها ..

وكانت لا تزال تحتفظ بمفتاح البيت .. وفتحت الباب وفاجأت أمها التى نظرت إليها بشهقة المفاجأة .. وكأنها خافت عليها من هذه الشهقة « فانحدقت » عليها تحتضنها .. وخرجت إليها أختاها صارختين مهللتين .. أما أخوها الأصغر فلم يكن قد عاد إلى البيت بعد .. وجمعتهن الفرحة المهللة .. إلى أن هدأن وبدأت سارة تحدثهن عن نفسها .. ثم تستمع إلى أخبار كل منهن .. ان أختها الصغرى ستعلن خطبتها هذا الأسبوع .. وقالت وهى تقبلها مهنئة :

— سنحتفل بالزواج هذا الأسبوع .. قبل أن أعود إلى لندن .. وسأقيم لك أكبر حفل شهدته القاهرة ..

وقالت الأخت :

— ولكننا لم نعد شيئا .. الشقة والجهاز و ..

قالت سارة وهى طائرة بفرحتها :

— سأترك لك ما يكفى كل شىء .. ولا يهمك من يدفع فيكما ما دمت مقتنعة به .. إن الزواج يكفى فيه اقتناع كل واحد بالآخر ..

وقالت الأم كأنها كانت قد نسيت :

— كيف حال زوجك .. إنك لم تحدثينا عنه ..

وقالت سارة ضاحكة :

— إنه كما هو .. لم يتغير فيه شىء وليس له أخبار جديدة ..

وقالت الأم وهى تغرز نظراتها فى ابنتها لعلها تكتشف شيئا تخفيه :

— لماذا لم يأت معك ؟

وقالت سارة بلا اهتمام :

— إنه مشغول فى عمل كلفته به ..

ثم أدارت الحديث كأنها لا تريد أن يكون زوجها موضوعا لحديث .. وبدأت تفتح حقيبتها الصغيرة .. وأخرجت « بروشا » فى شكل دبوس من الذهب مرصع ببعض الفصوص وبدأت تعلقه على صدر أمها .. وقالت الأم وهى مبهورة :

— خسارة يا ابنتى .. إنى لم أعد أستطيع أن أتزين به ..

وقالت سارة ضاحكة :

— إنه لى ولك .. سيبقى على صدرك ولن ينتقل منه إلا إلى صدرى ..

كأنها كانت تحذر أختيها من أن تحاول إحداهما الاستيلاء على حلية أمها .. وأخرجت من حقيبتها سوارا لكل منهما .. سوارا من الذهب المرصع أيضا .. ثم فتحت الحقيبتين الكبيرتين وبدأت توزع عليهن فساتين وقطعا من القماش الغالى .. وهن يصرخن مبهورات .. كيف استطاعت أختهن سارة أن

تصل إلى كل هذا الثراء الذى يوفر لها كل هذه الهدايا .. ولكنه انبهار لا
خلجة من الغيرة أو التساؤل ..

وجاء أخوها الأصغر واحتضنته طويلا وهى منهارة عليه بالقبلات
يزال طفلا .. إنها تحس بأخيها دائما كطفل .. وقالت له مدللة بعد أن
عنه من أحضانها :

ــ لقد فكرت فى أن أشترى لك سيارة .. ولكنى لا أطمئن عليك حتى
وأنت تقود سيارة .. فلنؤجل السيارة إلى الهدية القادمة .. وقد جئت
بهذه ..

ولفت حول معصمه ساعة تجمع كل مبتكرات الساعات الحديثة
أخرجت له قطعا لا تنتهى من الثياب وآخر ما ظهر من آلات الحساب التى
عليها الشباب .. وهو يقفز فرحا ولا يكف عن تقبيلها ..

لقد أفرطت سارة فعلا فى حمل الهدايا إلى أفراد العائلة .. ولكنها تحس
أقوى وأحب ما تملكه هو ارتباطها بالعائلة .. رغم كل ما جمعته من عملها
لندن .. فإن أقوى وأثمن ما فى جيوبها هو أفراد العائلة .

إنها مهما ارتفعت .. لا تزال شخصيتها هى شخصية العائلة .. شخصية
العاصى إدريس ..

وقد نام ليلتها الخمسة من أفراد العائلة فى غرفة واحدة .. لا يستطيع أن
أحدهم عن الآخر .. ولا يكفون عن الكلام ..

وفى صباح اليوم التالى كانت فرحة سارة بلقاء أفراد عائلتها قد هدأت
يتغلب عليها إحساسها بمسئوليتها كامرأة عاملة صاحبة مشروعات وتالها
الآمال ..

لقد جاءت القاهرة لترى هدى هانم وتفاوضها فى الأسس التى يقوم
التعامل بينهما .. هى فى لندن وهدى هانم فى القاهرة .. ورفعت سماعة التليفون
واتصلت بها فى بيتها وقالت هدى وصوتها منطلق بعواطف الحب والفرح

عادتها :

ــ لقد كنت فى انتظارك أمس .. ومازلت فى انتظارك ..

وذهبت إليها سارة فى البيت لا فى « البوتيك » .. والتقتا فى فرحة مصادقة ..
سارة لا تستطيع مهما حدث أن تتجرد من حب هدى ولا من اعترافها
بفضلها عليها .. وبعد انطلاقات الحب فى كلام حلو .. قالت سارة كأنها بدأت
تلومها :

ــ ولكنك لم ترسلى لى مفتش الجمرك ليكون فى استقبالى ويغنينى عما كان
يمكن أن أتعرض له ..

وقالت هدى من خلال ابتسامة كأنها ابتسامة أم :

ــ هذا من أخطائك .. ولم أكن أخسر شيئا من تكليف المفتش عادل شاهين
باستقبالك .. فهو يأخذ منى مرتبا شهريا سواء كنت فى حاجة إليه أو لم أكن ..
وقد مضت مدة طويلة لم أسافر خلالها حتى أكون فى حاجة إليه .. ورغم ذلك
أدفع له وأنا أتمنى أن أكلفه بأن يكون فى استقبالك .. وهو لا يستطيع أن يقوم
بمهمته إلا إذا كان فى « نوباتشية » العمل .. أى أن يقوم بمهمته مع ساعة
وصولك أنت .. وكان يجب أن تتصلى بى مقدما حتى أحدد لك موعد الطائرة
التى تصلين عليها .. كما يفعل بقية أصدقائى .. ولكنك لم تتصلى بى ..

وقالت سارة وهى تحس بالصفح عن هدى هانم فى هذا الموضوع :

ــ لقد سترنى الله واستطعت أن أمر بالجمارك فى سلام .. ولكن هناك
موضوعا أهم وأكبر .. فقد أخبرنى البكباشى عزت محروس .. آسفة .. مستر
عزت محروس .. بقيمة الأرباح التى خصصتها لى فى العملية التى قمت بها ..
وأحس أنك ظلمتنى ..

وقالت هدى فى هدوء يبرز صوتها الحاسم كأنها بدأت تدخل فى معركة :

ــ لا تنسى أنى أنا عن طريق عزت بيه التى قمت بنقل البضائع من لندن إلى
القاهرة .. ونقل البضاعة يستنزف الكثير من الأرباح .. إن كل من أكلفه بنقل

حسبة من الحقائب أعطيه مبلغا كبيرا يصل إلى المئات نظير قيامه بالعملية ..

ولم تستسلم سارة وظلت تناقش هدى رفع مجموع أرباحها من ثمانية آلاف حنيه إلى عشرة آلاف ..

وبعد أن هدأت المناقشة عادت سارة تسأل :

— وكيف حال سوق القاهرة اليوم ..؟

وصاحت هدى كأنها تنفث عن زوبعة فى صدرها :

— سوق متعبة .. تفقد احترامها وزهوتها .. إن كل امرأة أصبحت تفتح « بوتيكا » وتبيع فيه .. حتى أنى بدأت أفكر فى أن أهجر هذا الجو المسموم .. وأغلق البوتيك .. وأرتاح .. وإن كنت أحيانا أفكر فى أن أدخلك شريكة لى .. فإنى أعرف أنك أصبحت قادرة كما أنى أعترف دائما بفهمك لكل معاملات السوق وشطارتك .. ما رأيك فى أن تكونى شريكة لى ..

وفوجئت سارة بهذا العرض .. وارتفع حاجباها فى دهشة .. ثم قالت وهى سارحة :

— إنه يشرفنى أن أكون معك دائما .. ولكن دعينى أفكر ..

وتركت هدى وقضت أياما تطوف بشوارع القاهرة .. لقد ازدحمت الشوارع فعلا بالمحال التى تبيع الثياب المستوردة .. وغير الثياب أيضا .. كل ما يعرض وصل من الخارج .. وقد كانت القاهرة تعيش ما سمى بعهد الانفتاح .. فتحت السلطات كل الأبواب لكل شىء مستورد حتى لم تعد تجد فيها شيئا مصنوعا فى مصر . وقد مرت بشارع الشواربى الذى كان يعتبر أيامها قمة سوق المستورد .. خصوصا من مطالب النساء ..

وقد أحست بالشارع مزدحما ازدحاما شعبيا ليس فيه شىء من الاحترام أو الأبهة أو الفخامة .. وكانت تقلب فى بعض البضائع فتكتشف فورا أنها بضائع قديمة .. استهلكت فى بلادها .. وأرسلت إلى مصر لتباع كأنها جديدة .. وبدأت تحس كأنها تمر بسوق « الكانتو » .. كل ما فيه من فضلات أوروبا

ومغشوش ومزيف .. وهى لا يمكن أن تعمل أو تتعامل فى مثل هذه السوق .. إن القاهرة فقدت أقوى دوافع التجارة وهى دوافع عمليات التهريب .. كما أن السوق لم تعد تحتمل البضائع الغالية لأنها لم تعد مقصورة على أفراد طبقة واحدة .. لقد فتحت لعامة الطبقة الوسطى التى يندفع أفرادها مهما جازفوا بشراء ما يمكن أن يتباهوا به من أنه مستورد من الخارج .. من باريس . من لندن .. من أمريكا .. ولا يهم قيمة هذا المستورد يكفى أن يتباهوا به كشىء مستورد ..

إنها لن تبدأ أى مشروع فى القاهرة ..

وستستمر فى تحقيق مشروعها بافتتاح بوتيك فى سويسرا .. وكانت تتصل كل يوم تليفونيا بزوجها مايكل .. لقد بدأ المشروع فعلا وهو الآن فى جنيف ينهى اتفاقه مع مواطن سويسرى يفتح محلا باسمه .. وستذهب إليه بعد أن تشبع من القاهرة ..

ومنذ بدأت بركوب الطائرة من لندن فى طريقها إلى القاهرة وأمامها صورة تخيلها وهى تحس بأنها جائعة إليها وتريد الشبع منها .. إنها صورة عبد النور رأفت تاجر الجواهر الذى التقت به مصادفة فى دعوة مجموعة من المشايخ العرب .. وقد كانت تعتقد أن ما شدها إليه هو أنه فتح أمامها آفاقا جديدة فى سوق التجارة .. كان يتكلم فى هدوء يكشف أمامها أسرارا كانت تجهلها .. وكان كأنه يلقى عليها دروسا فى الأسلوب الذى يمكن أن تمد به أصابعها لتلتقط ما تطمع فيه .. وقد قررت منذ أول لقاء أنها تريد أن ترتبط به .. مجرد ارتباط صداقة .. ولكنها عندما جمعهما اللقاء الثانى .. شعرت بأحاسيسها تشدها إلى نواح بعيدة عن السوق .. بدأت تحس بأنها تريده هو شخصيا بعيدا عن السوق .. ملامحه كلها تشدها إلى خيال آخر .. إنه ليس شابا .. ولعله تجاوز الأربعين من عمره .. وكل خط فى وجهه يعبر عن قوة عارمة .. وهى قوة جذابة تشدك إليه .. كأنه قادر دائما على أن يفرض ما يريد .. ليس فيه شىء من هذه

الميوعة التى تعبر عنها ملامح زوجها مايكل .. وقد تحملت ميوعة مايكل حتى تستغله لتحقيق أهدافها .. ولكنها لا تشعر مع عبد النور أنه يفرض عليها أن تتحمل أى شىء منه .. بالعكس .. إنها تحس أنها تهم باقتحام كل شىء فيه .. وتظل تحدق فيه حتى وهو يلقى عليها دروس السوق .. إنه أسمر .. ولكنه ليس فى كثافة سمرتها .. كأنه استأذنها فى أن يستعير من سمرتها بعض الرتوش الخفيفة ليحلى بها وجهه .. وشفتاه لا يكشفان عن أسنانه حتى وهو يبتسم .. إنهما لا تكشفان عن صف اللؤلؤ الذى تكشفه هى بابتسامتها .. ورغم ذلك تحس كأنها تريد أن تلتقط هذه الشفاه الغليظة المكتنزة .. تلتقطها بين شفتيها .. وهى تحس بأن كل الساعات التى تقضيها معه تمر وهى تعيش فى صورته لا فيما يقوله لها .. لعله أول رجل يلتقى بها ويثير فيها إحساسها بأنها امرأة .. أنثى .. وقد التقت من قبل بعشرات الرجال حاول معظمهم إثارة إحساسها بأنها امرأة .. ورغم ذلك لم تشعر قط بأنها امرأة .. لقد كانت تجهل أو تتجاهل الفرق بين طبيعة الرجل وطبيعة المرأة .. ولا تحس إلا بأن كليهما يخوض سوقا تجارية واحدة ..

وقد تمكن منها هذا الإحساس الجديد عليها فى اليومين اللذين قضتهما مع عبد النور فى لندن .. وكانت تستسلم لهذا الإحساس حتى إنها فقدت إصرارها على أن تأخذ نصيبها من الأرباح عندما ذهبت معه ليشترى من محل « هارودز » .. لقد كانت تستطيع أن تأخذ أرباحها حتى بعد أن اكتشف نصيبها من العمولة وحرض إدارة المحل على إلغائه .. ولكنها استسلمت له .. الأحاسيس الجديدة هى التى دفعتها إلى هذا الاستسلام ..

وقد قاومت هذه الأحاسيس منذ بدأت تزحف داخلها . وتعمدت بذل مجهود كبير حتى تقنع نفسها بأن كل ما بينهما لا يتعدى المعرفة والصداقة .. حتى بعد أن وصلت إلى القاهرة قضت أياما وهى تقاوم رغبتها فى أن تذهب إليه وتراه .. إنها ليست فى حاجة إليه لأى شىء تريده فى القاهرة .. ولكن مقاومتها تضعف يوما بعد يوم إلى أن استسلمت أخيرا وذهبت إليه .. لماذا تخاف .. لن

يكون بينهما إلا لقاء أصدقاء ..

وذهبت فى الصباح إلى محل بيع الجواهر الذى تلمع كل أركانه ببريق الألماس .. وقفز إليها مبهورا واحتضن يديها بين يديه وهو يقول :

ــ تأخرت كثيرا إنى أنتظرك منذ أيام ..

وقالت فى دلال وهى تشد عينيها بعيدا عن عينيه :

ــ ومن أدراك أنى فى القاهرة ؟..

وقال ضاحكا :

ــ لا يمكن أن يغيب عنى أى سر من أسرار السوق ..

وقالت متمايلة :

ــ وهل أنا مجرد بضاعة فى السوق ؟

وقال وهو يمد كفه بجرأة ويمسح بها على شعرها :

ــ إن كل شىء يلمع فى السوق .. سواء فصوص الماس ، أم فصوص الشوق .. وقد كنت فى شوق إليك لذلك لمعت أمامى فى السوق ..

وقالت وهى تحاول الاحتفاظ بقوتها :

ــ لم أكن أستطيع أن أمر بالقاهرة دون أن أراك .. لقد تركت تأثيرا على عندما التقينا فى لندن .. إنك أستاذى .. أستاذ السوق ..

وقال وهو يضمها بعينين فرحتين :

ــ لو لم أرك هنا لسافرت إلى لندن لأراك .. فإنك تركت فى إحساسا بأن أكتشف فى سوق لندن تحفة نادرة .. والآن .. لن نبقى هنا .. سنذهب لتناول الغداء فى أى مكان ..

قالت وهى تزداد ضعفا :

ــ ولكنى على موعد ..

وقاطعها وهو يجمع حوائجه من على مكتبه :

ــ لن أقبل أى عذر .. وإنى أحس بأنه لم يعد فى دنيانا أعذار تطيل حرمان

أحدنا عن الآخر .. وشدها وخرج بها من محل الجواهر ووضعها فى
وانطلق بها إلى الشوارع البعيدة وجلسا لتناول طعام الغداء فى مطعم هاد
والحديث لا يكف بينهما .. تحدثه عن أعمالها فى لندن .. ويحدثها عن
أعماله .. ثم يبدأ كل منهما فى الحديث عن نفسه .. يروى قصته .. كلاهما
حياة باردة فارغة .. حتى القلوب فارغة .. إن جيوبهما متضخمة بما فيها
أرباح وأرصدة .. ولكن قلبيهما ليسا فى جيبيهما .. كل منهما يحتفظ بقلب
خرابة خالية .. كل قلب يعيش فى صحراء منعزلة لا يجد فيها ما يشبع
الإحساس بالحياة ..

واستمر اللقاء طويلا حتى وصل إلى ما يقرب من الساعة الرابعة .. و
كأنها أفاقت :

ـ يجب أن أذهب الآن .. إنى على موعد للقاء أمى ..

وقال بسرعة :

ـ لا تعديها بتناول العشاء معها .. فالعشاء معى ..

ووقفت مبهورة .. هل تعطيه ساعات العشاء أيضا .. و لم ترد عليه ولك
وجدت رأسها يهتز موافقة ..

و كان ينتظرها بسيارته فى الموعد الذى حدد للقاء العشاء .. و لم يحاول سؤا
عن اختيار أين يتناولان هذا العشاء .. ولكنها وجدته يقف بالسيارة أمام عما
كبيرة ثم ينزل ويفتح لها الباب لتنزل معه .. أين سيأخذها .. لعله قدر أنها
نوع النساء الذى يمكن أخذه إلى أى مكان .. ورغم ذلك لم تقاوم و لم تتوقف
سارت معه إلى أن ارتفع بهما المصعد إلى شقة فتح بابها بمفتاحه .. و لم تكن
صغيرة كالشقة التى تستخدم كجرسونيرة يلتقى فيها رجل بامرأة فوق الفراش
إنها شقة كبيرة جدا .. وفخمة جدا .. تتزاحم فيها قطع أثاث راقية تليق بأ
العائلات .. وهى تنظر إلى كل شىء كأنها تطمئن نفسها .. إنه لم يأخذها إلى
على فراش .. وقد أجلسها فى الصالون الواسع وأمامها مائدة قد أعد فوقها أطبا

الطعام وزجاجات الويسكى والشمبانيا .. إنها لا تشرب الخمر .. وهو لا يلح .. والحديث لا ينتهى بينهما .. حديث أرق وأهدأ من حديث ساعة الغداء .. وهو يقطع من الأطباق ويعطيها فى فمها .. وضحكاتها تطير بها .. وتقلده وتمد يدها إلى فمه هو الآخر وهى تحس كأنها تطعم قطتها الأليفة .. ثم امتدت ذراعه وأحاطتها وجذبتها إليه .. وتعلقت عيناه بعينيها كأنه يستأذنها ثم سقط بشفتيه على شفتيها .. إنها أول قبلة من هذا النوع من القبل يصل إلى شفتيها .. إن قبلات الرجال لها طعم آخر غير القبلات التى ذاقتها من زوجها الإنجليزى مايكل .. كأن مايكل لم يكن يصنع القبلة لكن هى التى كانت تصنعها له .. وطالت القبلة وامتدت يده فى رفق لتصل إلى خصرها ثم إلى ثديها .. وفجأة انتفضت كأنها أفاقت .. إنها تحس بما ستنتهى إليه هذه القبلات .. وهى لا تريد .. وأبعدت شفتيها عن شفتيه وهبت واقفة وهى تقول لاهثة :

ـ يجب أن أذهب الآن ..

وانهار رأسه فوق صدره كأنه سقط من جبل عال .. جبل المتعة .. والتقط أنفاسه وقام إليها واقفا بجانبها :

ـ ربما هذا يكفينا اليوم .. ولكنى أريدك فى أمر هام .. إنه أمر متعلق بالعمل ويقوم على ثقتى الكاملة فيك وفى شطارتك .. فهل أعرضه عليك الآن أم نتركه إلى لقاء الغد ..؟

وقالت وهى تساوى شعرها وتشد ثوبها عليها بعد أن هربت من أحضانه :

ـ إنى فى الغد أقيم فرح زواج أختى .. وقد نسيت أن أقول لك إنك مدعو ..

وقال مبتسما :

ـ إن فرحنا أنساك فرح أختك .. ولنجلس معا دقائق ..

وعادا جالسين وكل منهما متباعد عن الآخر .. وكأن كلا منهما يقاوم إلقاء نفسه فى أحضان الآخر .. ومد عبد النور يده ورشف من كأس الشمبانيا كأنه يحاول مقاومة الحالة التى هو فيها بعد أن طالت به قبلات سارة .. ثم قال وقد هدأ

وأصبح صوته جادا متأنيا :

— إنها عملية كبيرة وخطيرة .. فإن عندى زمردة كبيرة يصل حجمها إلى عشرين قيراطا .. وقد يئست من أن أبيعها رغم مرور السنين .. وبدأت أفكر فى أن أبيعها فى الخارج .. أبيعها إلى أحد محال المجوهرات الكبرى لا إلى فرد من المشترين .. وكنت أفكر فى كيفية حملها ونقلها إلى الخارج .. إلى أن تركز تفكيرى فى الاعتماد عليك .. إنك ستكونين فى سويسرا بعد أيام .. فهل تستطيعين أنت تأخذى هذه الزمردة معك وتبيعها إلى ، محلات « بلجارى » أو محلات « شانيلا » أو « بياجيه » أو أى محل آخر من محال المجوهرات ..

وقالت سارة وهى تشهق :

— إنى لا أعرف كيف أبيع أى فص من الفصوص .. ولم يسبق لى أن تعاملت فى هذه السوق ..

وقال عبد النور فى بساطة :

— إنها سوق ثابتة وسهلة .. اتركى لمن تعرضى عليه أن يحدد الثمن .. المهم أن تبيعى باسمك ولكنك ستبيعين باسمى أنا .. وسيتصلون بى مع إتمام العملية وكلهم يعرفونى .. المهم هل يمكن أن تطمئنى على هذا الفص وأنت تحملينه إلى سويسرا

وقالت تائهة :

— إنى معتمدة على هدى هانم فى المرور من الجمرك .. إن لها مفتشا خاصا تتعامل معه .. ولكنى لا أطمئن إلا إذا وجدت نفسى سليمة فى البلد الذى أسافر إليه ..

وقال عبد النور وهو يبتسم ابتسامة وقورة :

— سأجازف بك ومعك ..

ومد عبد النور يده فى جيبه وأخرج لفافة زاهية فتحها لتبرق من بين أوراقها الزمردة الكبيرة .. واتسعت عينا سارة مبهورة تكاد تصرخ من روعة ما تراه ..

وانتظر عبد النور برهة حتى هضمت انبهارها ثم وضع الزمردة فى يدها .. وعيناها معلقتان به لا تدرى ماذا تقول .. ثم مالت وقبلته قبلة سريعة كأنها تشكره على ثقته بها .. ولكنه لم يترك القبلة تمر سريعا بل استطاع أن يحتفظ بها طويلا ..

وخرج بها من الشقة ليحملها إلى بيتها فى سيارته .. وهى محتفظة بفص الزمردة فى يدها قابضة عليها بكل أصابعها كأنها تخشى أن تسقطها فى حقيبتها وتتركها فيها .

ولا حديث طوال الطريق .. كل منهما غارق فى أحلامه ومخططاته ..

* * *

وكانت سارة تنوى أن تقيم الفرح فى أكبر فنادق القاهرة .. فى الهيلتون أو فى الشيراتون أو فى الفندق الجديد الماريوت .. وتحييه بمطربة كبيرة .. نجاة أو شادية أو فايزة أحمد أو وردة .. ولكن أمها أخذت تتحايل عليها حتى تتواضع قليلا فى إعداد فرح أختها وقالت تنصحها :

— هذا كثير علينا .. وسيثير حولنا كلام الناس .. ثم إنه سيدفع إخوتك إلى أن يطالبوا بالأكثر سيطمعون فيك ..

ولم تكن سارة تحس بأنها ستنفق على حفل الفرح ما هو كثير عليها .. إن رصيدها فى لندن لن يتأثر .. ثم لم يكن يهمها كلام الناس .. وبالعكس .. إنها تريد أن تعلن أمام الناس أنها نجحت فى الوصول إلى الطبقة العليا الثرية .. ولكن ما قالته أمها من أن إخوتها قد يتمادون فى مطالبتها بالأكثر أوقعها فى هوة التردد .. وفعلا إن الإخوة الثلاثة بدأوا يلحون عليها بأن تصحبهم معها إلى لندن .. وقد تحقق لهم لندن ما حققته لها من نجاح .. وكانت تصر على الرفض .. إنها لا تستطيع أن تعيش معهم فى لندن .. وكانت تبرر رفضها بأنها لم تستقر فى لندن بعد .. بل إنها قد تضطر إلى ترك لندن والانتقال إلى بلد آخر .. بل قد تضطر إلى العودة للإقامة معهم فى القاهرة .. وهم يستمرون فى الإلحاح .. حتى لو كانت غير مستقرة فليجازفوا ويعيشوا معها بلا استقرار .. فماذا تفعل لو فاجأوها بأن

وجدتهم أمامها فى غربتها .. طامعون فى ثرائها الذى تظهر به أمامهم .. لذلك اقتنعت بما قالته أمها .. وقالت لأختها العروس .. إنها ستضطر إلى التوفير فى نفقات الحفل بعد أن وجدت أنها لا تستطيع أن تتحمل نفقات كل أحلام الفرحة بها .. واكتفت فعلا بتخصيص الصالة الصغيرة فى الفندق بعد أن كانت قد حجزت الصالة الكبيرة .. كما عدلت عن الاتفاق مع أى مطربة لإحياء الحفل واكتفت بالفرقة التى تزف العروس .. كما جعلت من الحفل كله مجرد حفل استقبال وليس حفلا ساهرا ..

ورغم ذلك فالعروس فرحة والعريس أكثر فرحا وتباهيا .. فلم يكن أى منهما يحلم بأن يقام حفل زفافه فى مثل هذا الفندق الكبير .. وربما كان مما أطلق فرحتهما هذا العدد الكبير من أفراد الطبقة الراقية التى دعتهم سارة وخلطتهم بأفراد الطبقة المتواضعة التى تمثلها عائلة كل منهما .. وأم سارة جالسة متباعدة صامتة كأنها لا تستطيع أن تعيش هذا المجتمع الجديد ولعلها كانت تتمنى أن يتم زفاف ابنتها داخل البيت فى هذه الفرحة الصادقة المتواضعة التى لا تزال تحلم بها لكل بنت من بناتها ..

وكانت سارة قد دعت هدى هانم إلى حفل الزفاف .. ودعت عبد النور رأفت .. ودعت كثيرين من الشخصيات الممتازة الذين عرفتهم وارتبطت بصداقتهم خلال أعمالها .. بل إن هدى هانم نفسها شاركتها فى اختيار المدعوين .. ووصلت سارة إلى أنها كانت تريد دعوة مفتش الجمرك عادل شاهين .. إنها أكثر حاجة إليه هذه المرة فهى تحمل زمردة .. ولكن هدى نهرتها كأنها تفيقها من غبائها الاجتماعى .. وقالت لها إن ارتباطها بالمفتش عادل شاهين يجب ألا يعرفه الناس .. وسيبقى سرا خفيا حماية لهما وحماية لعادل شاهين نفسه من الأقاويل والإشاعات ..

وقد وجدت سارة نفسها خلال الحفل لم تعد قادرة على تركيز كل نشاطها على متطلبات الاحتفاء بالمدعوين .. كما كانت طبيعتها على التركيز دائما على

الأهم .. فقد كانت تمر بها لحظات تحس فيها أنها مجمدة فى مكانها وعيناها معلقتان وراء عبد النور رأفت .. مشدودة إلى كل تحركاته وإلى كل شفتيه وهما تتحركان بكلمات لا تسمعها .. ثم تجد نفسها قد اقتربت منه كأنها تضن بكلمات أن يسمعها غيرها .. ثم تعود وتكتشف أنها أطالت من وقفتها معه وتدفع نفسها للابتعاد عنه لتكون مع باقى المدعوين .. إنها فى حالة جديدة لم تطرأ على أحاسيسها من قبل .. ولكنها تقاوم هذه الحالة ..

وقال عبد النور وهو منصرف مع انتهاء الحفل وهو يبتسم ابتسامة كأنه يحاول أن يضع أهدافه فى نكتة :

ــ لماذا لا نلتقى الليلة لنقيم نحن أيضا حفل زفافنا ..

وقالت وشفتاها تشتهيان شفتيه :

ــ سيكون حفل زفافنا بعد أن أقوم بالمهمة التى كلفتنى بها ..

قال وهو يحتضنها بعينيه :

ــ غدا ..

قالت وهى تتنهد كأنها فى حسرة :

ــ سأسافر غدا فى الصباح الباكر .. وستكون معى .. كأنك زمردة ..

وقال وهو يضغط على يدها ثم يرفعها ويقبلها دون أن يثير الشبهات .. إنها مجرد تحية :

ــ سأنتظرك هنا .. وانتظرينى فى جنيف ..

واختفى خارجا ..

وقلبها فى خفقات لم تحس بها أبدا من قبل ..

الحلقة الثامنة

مرت سارة من جمرك القاهرة فى سلام واطمأنت على الزمردة التى تحملها فى حقيبتها .. لقد كانت هدى هانم قد وضعت مأمور الجمرك عادل شاهين فى خدمتها فعلا .. وبدأت وهى فوق السحاب تحاول تركيز خيالها وأفكارها حول مشروع إقامة البوتيك فى جنيف .. ترى إلى أين انتهى زوجها مايكل .. هل اختار أين سيقام هذا البوتيك .. وهل اتخذ الإجراءات ليشترى من لندن أو من باريس ما يبدآن بعرضه .. لقد تركت لزوجها مبلغا كبيرا من رصيدها ليكون له حق التصرف فيه .. فكيف تصرف .. وحاولت أن تستمر فى تركيز فكرها على ما ينتظرها ولكنها وجدت فكرها بلا تعمد يتجه فى ليونة ورفق إلى التفكير فى موضوع آخر .. ربما أصبح الموضوع الأهم .. وجدت نفسها وكلها بفكرها وخيالها تعيش مع عبد النور رأفت .. وهى لا تعيش معه فيما كلفها به من عمل خاص ببيع الزمردة .. إنها تعيش معه هو شخصيا .. وتحس كأنها تحتضن وجهه الجاد الوسيم المائل إلى سمار .. وتحس كأن قبلته لا تزال فوق شفتيها وترفع أصابعها تتحسسها .. وكل ما فى أذنيها رنين صوته الهادىء الباسم الذى ينبض بالرجولة .. إنها أول مرة تحس برجل يأخذ فكرها كله وتستسلم له بعيدا عن كل طموحاتها فى تحقيق آمالها .. بل إنه أول رجل يثير فيها إحساسا كان قد غاب عنها طوال عمرها .. إحساسها بأنها امرأة .. ليست مجرد آلة ميكانيكية لتحقيق الأرباح .. وهى تحاول أن تقاوم هذا الاستسلام .. ولكنها تعود وتبتسم فى داخلها وتلقى نفسها فى خيالها مع عبد النور .. كان حراما عليها أن تحرم نفسها من هذه المتعة التى تعيش فيها لأول مرة .. متعة الإحساس بنفسها كامرأة .. امرأة لها قلب وليس كل ما فيها جيب

تسقط فيه الملايين ..

وكان زوجها مايكل فى انتظارها بالمطار .. ونظرت إليه من بعيد .. ولأول مرة تحس بوقاحة مظهره وهو غارق فى ميوعته .. والتواء قوامه .. وابتسامته السائحة بين شفتيه .. لم تكن تحس من قبل بكل هذا الشذوذ كأنه فضيحة تشهر به فى المجتمع .. ورغم ذلك تحاملت واستردت سيطرتها على نفسها .. واقتربت منه وتبادلت معه القبلات وهى تحاول أن تكون صادقة فى قبلاتها ولكنها أحست بأنها قبلات كاذبة .. إنها تقبله كأنها الرجل وليست المرأة .. وتركته يهلل ويتراقص ويطلق صوته الرفيع بصيحات ترحيبا بها .. ثم قدم إليها الرجل الذى كان معه .. إنه مسيو رينيه ديكارت .. وهو الصديق السويسرى الذى تم الاتفاق معه على افتتاح البوتيك باسمه كما يفرض القانون السويسرى . وطوال الطريق إلى داخل المدينة ومايكل يروى لها ما استطاع أن يحققه فعلا .. لقد استأجرا دكان البوتيك فى أكبر شوارع جنيف .. واتصل بمصانع إنتاج ملابس النساء فى لندن وفى باريس واستطاع أن يتفق على استيراد قطع من الطراز الحديث الغالى .. ثم قال وهو يميل برأسه على كتفيها كأنه طفل يبحث عن صدر أمه :

ــ لقد قررنا أن نطلق على البوتيك اسمك .. بوتيك سارة .. إنه اسم عربى ونحن نعتمد على الزبائن العرب .. اسم عربى يرتفع فى سماء جنيف .

وقالت سارة فى لهجة كبار رجال الأعمال :

ــ إن اسم سارة ليس اسما عربيا شائعا .. لنسمه بوتيك ليلى .. أو بوتيك فاطمة ..

ووافق مايكل ورينيه بسرعة على أن تسمى « بوتيك فاطمة » ..

وكان مايكل يقيم فى فندق خاص صغير أقرب إلى بنسيون .. وقد أعد غرفته لتتسع له ولسارة .. وقال وقد أصبحا وحدهما وهو يلم ميوعته لحظة إلى أن يعود وينطلق بها :

— يجب أن أصارحك بخطة العمل ونحن نبدأ فيه .. لقد رأينا أن يكون مشروع البوتيك شركة بيننا نحن الثلاثة .. أنت وأنا وصديقنا رينيه .. وقد قدمت استقالتى من محلات هارودز فى لندن لأتفرغ لإدارة البوتيك .. وصديقنا كأنه هو صاحب المحل المفروض أننا نستأجره منه ولو أننا لم نستأجر إلا اسمه الذى نضعه على الأوراق الرسمية .. وأنت يقوم عليك طبعا كل المعاملات التجارية مع المحل .. والأرباح تقسم بيننا نحن الثلاثة بالنسب التى نتفق عليها .. ما رأيك ؟..

ولم تكن سارة فى حالة تطيق بها المناقشات والمجادلات حتى تتأكد مما يعود عليها من وراء أى مشروع ..

وقالت بسرعة دون أن تفقد ثقتها بنفسها :

— موافقة .. ولكن هناك الآن ما هو أهم .. فإنى كما هى العادة لا أستطيع أن أقيم معك .. ويجب أن أنتقل إلى الإقامة فى فندق كبير حتى أتعرف على مجتمع الزبائن .. ولن أقدمك إلى من أعرفهم كأنك زوجى .. إن هذا كما تعرف يؤثر فى مدى ثقة الزبائن العرب بى .. سأقدمك إذا اضطررت كمدير موظف فى البوتيك ..

وقال مايكل وضحكته المائعة تسيح على شفتيه :

— طبعا موافق .. سنعيش فى جنيف كما نعيش فى لندن ..

وألقى بنفسه على الفراش ممددا على ظهره .. وذراعاه مرفوعتان تدعوان سارة إلى أحضانه .. وسارة تحس لأول مرة بثقل المهمة المكلفة بها .. مهمة تحقيق متعة هذا الرجل .. لقد كانت تحس من قبل كلما جمع الفراش بينها وبين زوجها أنها تلعب لعبة مسلية .. إحدى لعب الأطفال .. كأنها تنط الحبل أو تلعب استغماية .. ولكنها تحس اليوم بأنها لا تلعب .. إنها تقوم بمهمة ثقيلة متعبة .. وهى مضطرة أن تقوم بهذه المهمة .. إنها لا تزال فى حاجة إليه ..

وألقت نفسها عليه ..

بدأ مايكل يحس أن سارة قد تغيرت .. شىء فى القاهرة قد غيرها ولا ما هو ..

فى اليوم التالى جمعت سارة حقائبها وانتقلت إلى الفندق الكبير المطل بحيرة جنيف والذى كانت قد حجزت فيه منذ كانت فى القاهرة .. إنه يعتبر مركز المرور لكل الوافدين العرب فى طريقهم لقضاء الصيف فى بلاد أوربا .. واتفقت سارة من زوجها على أن يتركها وحدها على أن يلتقيا الظهر داخل محل البوتيك الذى يعدونه ..

وصعدت سارة إلى غرفتها فى الفندق الكبير وتركت حقائبها ثم هرعت سيارة أجرة وتطلب حملها إلى محلات الجواهر المشهورة لابلا » .. ولم تكن على اتفاق مع إدارة هذا المحل إنما قررت أن تبدأ به الكبير فى سوق بيع المجوهرات .. ودخلت بأقدام ثابتة تطلب لقاء ر العام .. وقد تعودت على هذه الخطوات الثابتة وعلى لقاء المديرين من ما عملت فى لندن ..

واستقبلها المدير بنظرات متسائلة يغلبها الشك الذى ترد عليه بصف اللؤلؤ ى تكشف عنه ابتسامتها ..

وقالت فورا حتى لا تترك مجالا لمزيد من الشك :

— إنى مندوبة عن خبير المجوهرات المصرى عبد النور رأفت .. ولعلكم ونه .. وهمس المدير فى أذن مساعده الجالس بجانبه ثم قلبوا فى بعض راق إلى أن قال المدير :

— إن مسيو عبد النور صديق قديم ..

وقالت سارة بسرعة :

— لقد أرسلنى بفص من الزمرد يجد أن السوق لا تتسع له فى مصر ويعرض يه لكم ليعرض فى السوق الأوسع ..

ثم فتحت حقيبتها وأخرجت الزمردة وناولتها للمدير فى بساطة وبلا تردد

كأنها لا تخشى شيئا .. والتقط المدير الزمردة منها وهو ينظر إليها فى دهشة .. ثم علق على عينه النظارة المكبرة المخصصة وأخذ يحلق فيها ويتحسسها بأصابعه .. ثم نادى اثنين من زملائه بهراهما أيضا بروعة الزمردة .. وتهامسا بكلمات لم تفهم منها شيئا .. إلى أن قال لها المدير فى هدوء مفتعل يخفى هواجسه :

— إن الحجر ثمين .. ولكننا بصراحة نريد أن نطمئن على علاقتك بمسيو عبد النور ..

وأخرجت سارة جواز السفر المصرى الذى يحمل اسمها .. سارة العباسى إدريس .. وقالت وهى تلقيه أمام المدير :

— هذا هو أنا .. ولتتأكد أكثر فلتتصل بمسيو عبد النور بالتليفون .. لعلك تطمئن أكثر بعد أن تتحدث إليه ..

وقال المدير كأنه قرر أن يقدم على مغامرة :

— إلى أن نتأكد .. فأحب أن أقول لك إن هذا الحجر يساوى سبعة وعشرين ألف فرنك سويسرى .. لا أكثر .. وكادت سارة تشهق .. إنه أكبر مبلغ تسمع عنه فى عملية واحدة تقوم بها .. إنه يساوى بأسعار هذه الأيام عشرين ألف دولار .. ولكنها كتمت شهقتها متظاهرة بأنها لم تسمع ما يثيرها .. وقالت :

— حتى بعد تحديد الثمن .. يجب أن أتصل بمسيو عبد النور حتى آخذ موافقته .. وأفضل أن تتصلوا به معى ..

وأطلقت رقم تليفون عبد النور فى القاهرة الذى كانت قد تعودت الاحتفاظ به فى ذاكرتها .. وطلبه المدير وأعطاها السماعة .. وقالت وقد أحست بشىء جديد وهى تسمع صوت عبد النور .. أحست بقلبها يخفق .. قالت فى لهجة جادة كأنها فى عمل :

— إنى فى محلات شاتيلا .. وسيحادثك المدير ..

ثم ناولت سماعة التليفون بحركة عادية إلى المدير الذى أخذ يتحدث إلى عبد النور بضع دقائق دون أن تفهم سارة كل ما يقوله .. كأنه يحدثه بلغة خاصة ..

لغة السوق .. وبعدها نقل المدير سماعة التليفون إلى يد سارة وسمعت عبد النور يقول لها :

— لقد اتفقنا على كل شىء .. وسيرسلون لى الثمن بشيك على البنك السويسرى الذى أتعامل معه .. وقد اتفقت معه على أن يكون نصيبك خمسة فى المائة .. وأنا أيضا سأدفع لك خمسة فى المائة .. شكرا .. وسنلتقى قريبا .. قريبا جدا ..

وأنهى عبد النور المحادثة دون أن ينتظر ولا كلمة واحدة منها ..

وجلست ساهمة وهى لا تدرى ماذا حدث .. لم تكن تتصور أن سوق المجوهرات يمكن أن تتم العمليات فيها بهذه السرعة والبساطة .. كلمة ورد غطاها ..

وخرجت من محلات شاتيلا وفى جيوبها سبعة آلاف فرنك سويسرى قيمة نصيبها من الصفقة .. نصيبها من جانب واحد .. وبقى لها نصيبها من عبد النور رأفت .. الرجل الذى تحس به كأنه أول رجل لاقته فى حياتها .. لعله الحب .. وهزت رأسها فى عصبية كأنها تلوم نفسها على هذا الكلام الفاضى .. كلام لا يطرأ إلا على ألسنة المراهقات .. وهى لم تعد مراهقة حتى تقتنع بأن هناك ما يسمى الحب ..

واندفعت مع زوجها مايكل فى استكمال إعداد البوتيك حتى قررت افتتاحه .. وكانت فى اندفاعها تبدو عصبية وليست مريحة كعادتها لعلها كانت تحاول أن تنسى انتظارها لوصول عبد النور إليها .. لقد قال لها إنهما سيلتقيان قريبا جدا .. وقد مضت إلى الآن عشرة أيام و لم يلتقيا ولا حتى فى حديث تليفونى .. وهى تفرض كل شخصيتها فى مقاومة هذه الحالة .. حالة الانتظار .. وتحاول أن تنساه قبل أن ينساها .. وتحتفظ بكل ما كان بينه وبينها كأنه مجرد عملية تجارية كسبت منها وانتهت .. وهى قد تعمدت أن تخفى عن زوجها مايكل كل شىء عن هذه العملية .. لم تكشف له عن عملية الزمردة التى باعتها لحساب عبد النور ..

ولا عن قيمة السمسرة التى كسبتها .. ولم تقل له أبدا إنها فى انتظار عبد النور .. وإنما اعتبرت أن كل ما يمكن أن يكون بينها وبين عبد النور يعتبر أمورا خاصة بها وحدها ليس من حق أحد أن يعرفها وخصوصا زوجها ..

وقد بدأت تطبق الأسلوب الذى أجادته لاكتساب صداقات النساء العرب .. نساء البترول .. وهو الأسلوب الذى يبدأ بلقاء غير متعمد داخل الفندق الكبير .. ولكن كان يجب أن تخط خطوطا جديدة فى هذا الأسلوب .. فهى الآن صاحبة شركة تجارية .. وليست مجرد سمسارة .. صاحبة بوتيك فاطمة .. فيجب أن ترتفع فى أسلوبها إلى مستوى أصحاب رؤوس الأموال .. وبدأت تتعمد مظهر التعالى والغرور .. إنها فى مستوى ثراء واحد مع كل من تقابلهن .. وليست فى حاجة إليهن أكثر من حاجتهن إليها .. وليس فى فنادق جنيف زحام فنادق لندن من النساء العربيات الوافدات .. ولكن جنيف تجمع مستوى أرقى منهن وأغنى .. وبدأت تشدهن إلى بوتيك فاطمة .. إنها تقول إن اسمه « فاتيما » .. ترجمة اسم فاطمة إلى لغة أوربا .. وكانت تبيع نفس البضاعة التى استوردتها من لندن بضعف ثمنها الذى تباع به هناك فى لندن .. وهذه هى طبيعة سوق جنيف .. كأنها تعتبر نفسها سوق الطبقة العليا وليست سوقا شعبية كأسواق لندن وباريس وبقية أسواق أوربا .. لذلك يباع ما فيها بضعف الثمن ..

ولم تكن هى التى تتولى عمليات البيع للزبائن .. إنها قد تدخل بهن ثم تجلس إلى مكتبها .. بينما تتولى عاملة استأجرتها عرض البضائع والاتفاق على الثمن .. وزوجها مايكل واقف خلف مكتب المدفوعات كأنه هو الآخر مجرد موظف .. كانت تتعمد دائما أن تحتفظ بمظهر متعال وغرور كصاحبة محل .. صاحبة رأس المال .. وقد انطلق ذكاؤها من طول ما عاشت فى السوق التجارية إلى أن النساء العربيات فى جنيف لا ينبهرن ولا حتى يتطلعن إلى قطع الثياب والمتطلبات النسائية التى تعرض عليهن .. ولكنهن يركزن كل اهتمامهن ورغباتهن على قطع الفراء ..

إنهن لا يعرفن عن سويسرا إلا أنها بلد يبيع الفراء .. لذلك بدأت سارة تركز كل جهدها على بيع قطع الفراء .. إن القطعة قد يصل ثمنها إلى أربعة آلاف دولار وترتفع إلى عشرة .. أو إلى عشرين .. وهى قد بذلت الكثير فى دراسة السوق .. وفى اكتشاف أسرار الفراء .. ولكنها تعترف بأنها لا تزال عاجزة عن الإلمام بكل الأسرار .. إنها تخلط كثيرا بين أنواع الفراء النادر والفراء المشاع .. وتخلط بين الغالى والرخيص .. ولكن الزبونات أيضا يجهلن أسرار الفراء .. إنهن لا يعلمن إلا أنه فراء يباع فى سويسرا .. وقد يكن قد حفظن بعض الأنواع .. الفيزون .. والاستراكان .. والرينار .. و .. ولكنهن لا يستطعن أن يفرقن بين هذه الأنواع عندما توضع أمامهن ويتحسسنها .. بل قد يخلطن بين الفراء الطبيعى والفراء المصنوع .. وقد استغلت سارة هذا الجهل وأصبحت تبيع أى نوع على أنه أى نوع وتحرص على فرض الثمن الأكبر ..

واشتهر بوتيك « فاطمة » أو بوتيك « فاتيما » ببيع الفراء للنساء العربيات .. وحقق أرباحا ضخمة سريعة .. وكان مايكل يختلى كل مساء بسارة ويقدم لها كشف الحساب اليومى .. كم تحقق من أرباح .. وقيمة نصيبها ونصيبه علاوة على ما يضاف إلى رصيد التعامل .. ولم تكن سارة تهتم كثيرا بهذا الحساب .. إنها ليست مطمئنة ولا غير مطمئنة .. إنها لا تزال تنتابها حالة انتظار عبد النور كلما فرغت من إدارة البوتيك حتى لو كان مايكل معها .. الحالة التى تأخذها بعيدا عن كل ما حولها كأنها تهيم بها وراء الأفق فى عالم مجهول .. ومايكل يقف أمامها مبحلقا بعد أن يكون قد انتهى من تقديم الحساب وابتسامته تسبح على شفتيه كأنه يتساءل عن نصيبه منها هذه الليلة .. ثم لا يلبث أن ينطلق ضاحكا ضحكته المنغمة كأنه يسخر منها ومن نفسه ثم يتركها ويختفى عنها .. لعله وجد لنفسه شلة فى جنيف تغنيه عن شلة لندن .. وإن كانت سارة تحس أحيانا بمسئوليتها عنه فتذهب معه إلى حيث يقيم وهى تحس بثقل المهمة التى لم تكن تحس بثقلها من قبل ..

وكان قد مضى شهر كامل .. ثلاثون يوما .. عندما دق جرس التليفون ..

إنه عبد النور رأفت .. وهو معها .. فى جنيف .. يقيم فى جناح من الفندق الكبير الذى تقيم فيه .. وتركت كل ما حولها دون أن تستأذن أحدا وذهبت إليه ..

ووقفت أمامه صامتة لا تستطيع أن تنطق بكلمة .. وابتسامتها ترتعش بين شفتيها حتى يبدو صف اللؤلؤ كأنه يرتعش معها .. وهو فى مواجهتها يلتهمها بعينيه وشفتاه المكتنزتان منفرجتان عن ابتسامة ضعيفة حائرة .. كانا فى صمتهما كأن كل واحد يتساءل من يأخذ الآخر ..

وأخذها ..

ولأول مرة فى حياتها تحس أنها تؤخذ دون أن تحس بأنها تعطى .. بعد أن عاشت العمر كله وهى تحس بأنها تعطى ولا تأخذ .. تأخذ كل هذه المتعة دون أن تعانى شيئا تعطيه ..

ولا يستطيعان أن يفترقا حتى بعد أن دهمهما الليل .. وتمر بهما فترات يجمعهما حديث .. وتتكلم وهى فى انتظار أن تأخذ أكثر .. ويتكلم وهو فى انتظار أن يعطى أكثر .. ولا يخطر على بالها أن تتصل بالبوتيك لتطمئن على أعمالها أو على زوجها .. ولا يخطر على باله شىء يرفع لمساته عنها .. وقد قال لها إنه اضطر أن يتأخر عنها لأنه سافر إلى نيويورك قبل أن يصل إليها .. وأشاد طويلا بكفاءتها وشطارتها فى بيع الزمردة فى جنيف .. وقد بدأ يخطط للاعتماد عليها فى عمليات كثيرة .. لماذا يبيع المجوهرات فى القاهرة وحدها .. لماذا لا يبيع فى كل عواصم العالم .. وسيسلمها قطعا من المجوهرات تتولى هى بيعها هنا .. فى جنيف ..

حتى الليل بدأ ينتهى .. وقامت متثاقلة كأنه لم يعد فيها ما تقوى به على القيام ..

وقالت وهى تضمه بعينيها :

ـ يجب أن أذهب إلى غرفتى لأسترد نفسى حتى ألقاك صباح الغد .. بل هو صباح اليوم ..

وقال متلعثما وكأنه يواجه مصيبة :

ـ إنى بعد ساعات سأركب الطائرة عائدا إلى القاهرة .. ابق معى حتى أتركك إلى السماء .. إنى لم أعد أطيق أبقى على أرض أنت فيها ولست معى ..

ونظرت إليه مبهوتة كأنها صدمت :

ـ وأنا لا أطيق أن تطير منى إلى السماء ..

وقال مؤكدا وهو يحتضنها :

ـ سأعود إليك بعد أسبوع واحد .. خمسة أو سبعة أيام ..

وقالت مبتسمة ابتسامة مسكينة :

ـ وأنا كما هى العادة سأعيش عذاب الانتظار ..

وأسقط ذراعيه عنها ثم اتجه إلى حقيبته الصغيرة وفتحها وأخرج منها صندوقين صغيرين من القطيفة .. صناديق المجوهرات .. وأخرج من الصندوق الأول خاتما يحمل فصا من الماس وعاد إليها وأمسك بيدها وبدأ يضع الخاتم فى أصبعها قائلا وهو يبتسم ابتسامة لا تسقط جدية كلماته :

ـ هذا سوليتير .. احتفظى به فى أصبعك حتى تستطيعى أن تبيعيه .. إنه عشرة قراريط .. ويساوى عشرة آلاف دولار على الأقل ..

ورفعت سارة يدها تبحلق فى صرخة إعجاب إلى الخاتم الذى أصبح يرقد على أصبعها ..

وفتح عبد النور العلبة الثانية وهو يقول فى لهجة أكثر جدية :

ـ وهذا سوار مرصع بالماس .. ليس فيه فص كبير .. ولكنه من النوع الغالى ويساوى على الأقل عشرين ألف دولار ..

وأخذت سارة العلبة وأغلقتها دون أن تنظر فى السوار طويلا .. والتقت عيونهما حائرة .. كأن كلا منهما لا يريد أن يترك الآخر .. ونزعت سارة نفسها من حيرتها وألقت قبلة سريعة على خده وجرت خارجة وقال عبد النور يودعها :

ـ سأعود ..

وقالت وهى تفتح الباب :

— سأنتظرك ..

وجرت وهى تهبط السلالم وألقت نفسها على فراشها وهى تعلم أنها لن تنام ..

وأحست وهى فى وحدتها أنها تفيق .. تفيق .. من عبد النور رأفت .. إلى ماذا ستنتهى معه .. إنها لأول مرة تخرج عن المبادئ التى عاشت عليها .. مبدأ ألا تكون أبدا لرجل فى الحرام .. وألا تكون أبدا واحدة من النساء الرخيصات .. وما سترها حتى اليوم واحتفظ لها بقوة شخصيتها هو أنها لم تكن أبدا امرأة رخيصة .. حتى عندما ألحت عليها أطماعها حرصت على أن تحققها فى الحلال .. فتزوجت مايكل .. ولم تكن تحبه .. ولا تحب أن تتزوج رجلا إنجليزيا .. ولكنها كانت تحقق أطماعها فى الحلال .. وأطماعها تلح عليها أيضا أن تكون لعبد النور .. إنها إطماع عاطفية لم تكن تخطر على بالها من قبل .. ولكنها أطماع أصبحت متحكمة فيها .. فهل تتزوج عبد النور أيضا .. لتصل بأطماعها إلى الحلال ..

وانطلقت من بين شفتيها ابتسامة ساخرة .. إن عبد النور مسيحى .. وهى لم تسأل نفسها فى البداية إذا كان مسيحيا أو من أى دين آخر .. ولم تعرف وتتأكد من أنه مسيحى إلا بعد أن بدأ يغرز أصابعه داخل عواطفها ويشدها إليه .. وقد صدمت ولكنها كانت صدمة أخف وأضعف من أن تقاوم بها عواطفها .. فاستسلمت دون أن تحس به غريبا عنها .. ولكنه حتى لو كان مسلما فلم تكن لتحس به كمسلم .. إن المرأة عندما تحب لا تحس بحبيبها إلا كرجل .. وقد وقعت فى الحب ..

واتسعت الابتسامة الساخرة فوق شفتى سارة .. هل تحاول أن تدفعه إلى إعلان إسلامه حتى يتزوجها كما فعلت مع زوجها مايكل .. مستحيل .. إن عبد النور شخصية أخرى غير مايكل .. شخصية قوية وصلت إلى حد فرض نفسه

عليها حتى استسلمت .. ولا يمكن أن تقبل مثل هذه الشخصية التضحية من أجل امرأة إلى حد أن تنسب نفسها إلى دين آخر .. لا يمكن أن يعلن إسلامه حبا فيها .. وأكثر من ذلك .. إن عبد النور متزوج فعلا وله ولدان .. وكانت تعرف ذلك منذ البداية .. أى أنها كانت تعرف أنها تسقط .. لم تعد سارة كما حرصت على أن يعرفها الناس .. إنها امرأة أخرى غير المرأة التى كانت تغالى فى الدفاع عن سمارها الداكن حتى يأخذها أحد على أنها امرأة جارية .. لقد استسلمت بإرادتها لتكون جارية لعبد النور ..

وزمت شفتيها كأنها تكتم صرخة ترفض بها تقبيحها لنفسها .. لماذا تعتبر نفسها كأنها سقطت .. ولماذا تتهم نفسها بأنها أصبحت امرأة رخيصة .. إن كل ما حدث هو نتيجة إحساسها بالنقص فى طبيعتها كامرأة .. وقد عاشت تقاوم هذا النقص إلى أن ضعفت أمام عبد النور .. شىء يمكن أن يجمع بين أى امرأة وأى رجل يعانيان النقص .. وما دام كل منهما لا يتعمد الخطيئة فمصيره فى يد القدر .. فى يد الله .. والمهم ألا يعتبرها عبد النور كامرأة رخيصة .. حصل عليها كما يمكن أن يحصل على أى امرأة .. وهى لم تكن رخيصة عندما حصل عليها .. لقد تركته أكثر من عام وهو يتمناها ويتلهف عليها .. بل لعله لم يقدم على تكليفها بالعمل معه ويعهد إليها بمسئولية التصرف فى مجوهراته إلا بدافع محاولة اكتسابها والوصول إليها .. وستحرص دائما على أن تظل بالنسبة له امرأة غالية .. يعيش وهو لا يكف عن محاولة اكتسابها .. لن تكون أبدا مجرد امرأة يملكها ..

وهدأت أعصاب سارة ورفعت يدها تتمعن فى الخاتم السوليتير الذى يبرق فوق أصبعها الداكن السمار .. إنها لن تبيع أبدا هذا الخاتم رغم أن عبد النور طلب منها أن تبيعه .. إنها ستحتفظ به لنفسها رغم أن عبد النور لم يعلن أنه هدية لها .. وهى أيضا قد تركت له هدية فهو لم يدفع لها نصيبها من نسبة أرباح بيع الزمردة .. تجاهل أن لها نصيبا .. وقضى الليل بين شفتيها دون أن يتحرك ليدفع لها هذا النصيب .. يبدو أنه من هذا النوع من رجال الأعمال الذى لا يدفع إلا

إذا طولب بالدفع .. وهى لم تطالبه ولا تنتظر أن يطالبها بالخاتم السوليتير .. ومن يدرى .. ربما كان عبد النور يقصد أن يهديها هذا الخاتم ولكنه تركها هدية معلقة خوفا من أن يفاجأ يوما بأنه مضطر إلى استردادها ..

وفتحت سارة العلبة التى تحمل السوار المرصع بحبات الماس .. وأخذت تقلب فيه بإعجاب صارخ .. إنها ستسعى لتبيع هذا السوار .. ولكن أين تحتفظ به إلى أن تبيعه .. وكيف تعرضه على من يمكن أن يشتريه .. إنها لا تستطيع أن تحتفظ به فى حقيبة يدها .. ولا أن تتركه فى غرفتها بالفندق .. ولا حتى تحتفظ به فى أحد صناديق الأمانات المخصصة لنزلاء الفندق .. وهى لن تعرضه بين معروضات البوتيك .. ستبقيه كعمليات خاصة بينها وبين عبد النور لا يعلم بها حتى زوجها مايكل .. إنها تحس بأنها وصلت إلى آفاق أوسع .. لقد كانت تتاجر فى المتطلبات النسائية وافتتحت بها البوتيك فى جنيف بالاشتراك مع زوجها .. واستطاعت أن تتخصص فى مبيعات الفراء .. ولكنها الآن انتقلت إلى سوق أخرى .. سوق المجوهرات .. وهى تدخله بالمشاركة مع عبد النور رأفت .. إنها سوق أعلى فى تحقيق الأرباح .. ولا شك أنها سوق تتطلب مظاهر خاصة وأسلوبا خاصا فى التعامل .. وهى لا تستطيع أن تثبت وجودها فى هذه السوق وهى تقيم فى الفندق .. وتمارس عملياتها علنا .. إنها سوق تفرض السرية .. وأول ما تفرضه عليها هو أن تنتقل لتقيم فى بيت خاص بها تزاول داخله عملياتها .. ويتردد عليها الزبائن بدعوات شخصية .. لا أن تطوف عليهم فى أروقة الفندق أو تستقبلهم فى بساطة داخل الدكان .. إن الاتجار فى المجوهرات ليس حراما ولا خطيئة ولكنها لا تزال فى البداية ولا تستطيع أن تفتح محل جواهرجى تتاجر فيه علنا .. إنها فى حاجة إلى مدة طويلة لتعيش داخل هذه السوق دون أن تظهر فيها ..

وبرقت عينا سارة كأنها تذكرت ما كانت قد نسيته .. زوجها مايكل .. لقد قضت نهار أمس وليله دون أن تراه أو حتى تتصل به لتطمئنه على نفسها .. ولا

شك أنه الآن فى البوتيك .. ورفعت سماعة التليفون وسمعت صوته وقالت وهى تأوه فى دلال :

ـ آسفة .. لقد حصرتنى مجموعة من الصديقات ليلة أمس ولم أستطع الاتصال بك ..

إنها واثقة أن مايكل يصدقها دائما حتى ولو لم يصدقها فهو لا يكذبها أبدا ..

وقال وضحكته الرقيعة المائعة تحس بها لأول مرة كأنها تجرح أذنيها :

ـ لا يهم .. المهم أنك مازلت على قيد الحياة ..

وقالت وكلماتها تغنج بين شفتيها :

ـ لقد أتعبونى .. حتى أنى لا أستطيع أن أقوم من فراشى .. وسآتى إليك فى المساء .. فى غرفتك .. ونقضى الليل كله معا .. وسأرد إليك الليلة التى حرمت منها منى ..

وقال كأنه يهرب من التعبير عن الشوق إليها :

ـ إن الحساب طويل وسيستغرق طول الليل ..

وقالت ضاحكة فى افتعال :

ـ لن أتركك إلى الحساب فأنا فى حاجة إلى شفتيك ..

وتركت سماعة التليفون وحاولت أن تنام .. ولكنها لا تنام .. خواطرها تشد [illegible] كلما حاولت أن تسقطهما على فيها .. وفى الساعة الخامسة ذهبت إلى [illegible] الذى يقيم فيه زوجها وهى تحمل له زجاجة من الخمر القش بمفضله [illegible] مشكلة من المأكولات لطعام العشاء .. وقد تعمدت أن تحمل معها كمية من الباذنجان لتطهو له طبقا من المسقعة التى يحبها وتنقله بها إلى ذكرياته معها فى مصر .. إنها تتعمد أن تعد كل شىء لإرضائه وتدليله كأنها تعوضه عن الليلة التى أخذتها منه .. الليلة التى أقدمت على خيانته فيها لأول مرة فى حياتها ..

واستقبلته بعد أن وصل إليها كأنها ليست سوى زوجته .. كل ما يمكن أن تعطيه لإرضاء شذوذه .. وإن كانت تحس على غير العادة بثقل كل ما يكلفها

العطاء.. إنها لأول مرة تحس بالفاجعة .. فاجعة أنها تعطى ولا تأخذ ..

وقالت وقد انتقلا لتناول العشاء وعيناه لا تزالان تبرقان بأضواء متعته معها :

— لقد اكتشفت أنى لا أستطيع أن أستمر مقيمة فى الفندق .. يجب أن أنتقل للإقامة فى بيت خاص .. لى وحدى .. إن التعامل فى الفراء قد اتسع حتى إنى لم أعد أستطيع أن أتابعه وأنا مقيمة فى الفندق .. سيكون لى بيت خاص يفسح لى مجالا لسهولة التفاهم مع الزبائن ..

وابتلع مايكل اللقمة التى كان يأكلها كأنها كادت تخنقه وقال :

— إن الإيجارات فى جنيف غالية .. مرتفعة جدا .. ولن أستطيع أن أساهم فى إيجار بيت لك .. ولا حتى يمكن أن يحسب هذا الإيجار من أرباح البوتيك ..

وقالت ضاحكة :

— إنى تعودت على بخلك .. لن تدفع شيئا .. ولا يحسب الإيجار من مصاريف البوتيك .. إنى مستعدة لكل شىء .. وسنبقى كما نحن .. سأقيم فى هذا البيت وحدى .. ولن تتردد على إلا بمواعيد .. إنى لا أزال أخشى أن أفقد قيمتى عندما تعلم صديقاتى العربيات بأنى إنجليزية ومتزوجة إنجليزيا ..

وقال مايكل وهو يعود ويلتهم لقم العشاء وعيناه لا تزالان تلتهمانها :

— مفهوم .. وموافق ..

قالت وهى تربت على وجهه بكفها :

— المهم أن نبحث معا عن هذا المسكن ابتداء من الغد ..

وكانت سارة منذ وصلت وهى تحتفظ بحقيبتها معلقة على كتفها حتى عندما ضمهما الفراش ظلت الحقيبة معها .. إنها تحتفظ فيها بالسوار المرصع بالماس .. وفى أصبعها خاتم السوليتير الذى يلمع فوق السمرة الداكنة .. وكانت قد فكرت فى أن تخفى الخاتم أيضا داخل الحقيبة ولكنها قررت أن تتركه ليراه مايكل .. إنها لا تريد أن تخلعه أبدا .. ولم يلتقط مايكل هذا الخاتم بعينيه إلا بعد أن انتهى من تناول العشاء .. فقد كان غارقا فى شذوذه ونشوته .. ولاحظت سارة أنه بدأ

يحلق فى الخاتم دون أن يسألها عنه وسبقته قائلة :

— إنه هدية اقتنعت إحدى صديقاتى بإهدائها لى ليلة أمس ..

وقال ساخرا ولعابه يسيل على شفتيه :

— وماذا أهديتها أنت فى المقابل ..

وقالت ضاحكة وهى تنظر إليه كأنها تلومه لأنه تجاوز حدوده بسؤاله :

— أهديتها ابتسامتى .. وأنت تعلم أنها ابتسامة غالية ..

وقال مايكل كأنه لا يستطيع أن يقاوم :

— إنه يساوى الكثير ..

وقالت وهى تقوم من جانبه :

— لا يهمنى كم يساوى .. إنى فقط معجبة به ..

وانحنت تقبله قبل أن تتركه لتعود إلى حجرتها فى الفندق الذى تقيم فيه ..

* * *

وسارت الأيام سريعة .. وكل يوم تذهب إلى البوتيك وتحقق مزيدا من الأرباح .. ثم تخرج مع زوجها لتطوف بحثا عن الشقة التى تستأجرها لتقيم لها .. وقد استقرت فعلا على اختيار شقة فى شارع هادىء راق فى أحد الأحياء الراقية بأطراف جنيف .. الإيجار غال .. ألف فرنك فى الأسبوع .. ولكنها ستدفع وستنتقل إليها يوم الأثنين ..

وفى صباح السبت دق جرس التليفون .. إنه عبد النور وقد عاد صادقا فى وعده بألا يتأخر عن أسبوع .. وحاولت أن تذكر نفسها بأنها قررت أن تكون امرأة صعبة .. ليست مجرد امرأة رخيصة تنهار مستسلمة لرجلها .. ولكنها وجدت نفسها تنهار .. كلاهما وقف فى مواجهة الآخر صامتا كأنه يتساءل من منهما يأخذ الآخر ..

وأخذها ..

منتهى المتعة وهى تحس بأنها تأخذ ولا تحس بأنه تعطى ..

ومد عبد النور يده وهو يريح أنفاسه اللاهثة وأخرج «بروش» مرصعا بالماس وضعه فى يدها قائلا :

— هذه قطعة أخرى معروضة للبيع ..

وشدت سارة حقيبتها وأخرجت منها السوار المرصع وقالت له :

— إنى لم أبع بعد هذا السوار .. وجدت أنى يجب أن أستكمل مظاهر مشرفا المبائع .. لذلك استأجرت شقة أقيم فيها .. وسأنتقل إليها يوم الاثنين .. وأستطيع أن أستقبل فيها من أتعامل معهم ..

وعبد النور يحلق فى الخاتم السوليتير الذى يلمع فوق أصبعها الأيمن الداكن .. وقالت فورا :

— إنى لن أبيع هذا الخاتم ..

وقال فى دهشة ضاحكة :

— لماذا ؟

وقالت وهى تقترب بفص اللؤلؤ من شفتيه :

— لأنى اعتبره الشبكة التى قدمت لى يوم زفافى ..

وقال وشفتاه تستسلمان لشفتيها :

— إن الأزواج أحيانا يضطرون لبيع كل شىء حتى الشبكة ..

وقالت فى صوت مرتعش خفيض :

— ربما يستر ..

وغاب صف اللؤلؤ بين شفتيه ..

الحلقة التاسعة

كان عبد النور رأفت قد ركب الطائرة عائدا إلى القاهرة فى صباح يوم الاثنين بعد أن تركته سارة عند الفجر عائدة إلى غرفتها فى الفندق .. وكان قد أمضى معها طوال يومى السبت والأحد .. لعل هذا سيكون نصيبها منه دائما .. السبت والأحد .. وإن كان لم يعدها هذه المرة بأن يعود إليها بعد أيام ..

وقد انطلقت منذ الصباح لتتسلم الشقة التى استأجرتها فى الحى الراقى بأطراف المدينة .. شقة مفروشة .. وقد أمضت أياما تبدل وتضيف فى أثاث الشقة حتى تضفى عليها طابعا أقرب إلى الطابع العربى .. حتى أنها فرشت إحدى الصالات بالسجاد والوسائد والمرتبات على الأرض والتى يمكن أن تتربع عليها جالسة .. كما وصلت إلى وضع خزانة فى مكان مختلف داخل أحد الدواليب .. حتى تحتفظ فيها بقطع المجوهرات التى يتركها لها عبد النور لتبيعها ..

ثم بدأت تدعو إلى زيارتها فى الشقة .. لم تكن تدعو أى واحدة ممن تلتقى بهن .. بل كانت تحكم ذكاءها فى اختيار من تدعوها .. وكأنها كانت تزنها بعينيها لتتأكد من ثقل ما ستستفيده من هذه الدعوة .. ولم تكن تلح وهى توجه الدعوة .. بل تدعو كأنها تعطى المزيد فى خدمة هذه المرأة .. كأنها تتفضل عليها ولها أن تقبل أو ترفض دعوتها .. كأن تصل إليها إحدى النساء العربيات داخل البوتيك لتشترى قطعة من الفراء .. وتقدر أنها امرأة سهلة واسعة الثراء .. فتقلب أمامها معروضاتها ثم تقول لها :

— هل تريدين أن ترى المزيد .. تفضلى بالمرور على فى بيتى لأعرض

عليك كل ما عندى .. على الأقل لأقدم لك فنجان قهوة .. وتترك لها العنوان ..

ولم يكن كل النساء يقبلن هذه الدعوة .. وربما كان بعضهن يحرصن على عدم المجازفة معها .. وكان اللاتى يقبلن الدعوة هن ما يبدو عليهن أنهن أكثر سذاجة وأكثر جرأة فى إشباع اندفاعهن إلى اكتشاف المجهول .. وهو النوع الذى تستطيع أن تستفيد منه أكثر ..

ولم تكن تستقبل من تزورها كمجرد زبونة لم تأت إلا للشراء .. بل كانت تتعمد استقبالهن كست بيت ترحب بصديقات للعائلة .. وتطيل فى الأحاديث العامة المسلية التى تأسر بها زائراتها .. وهى موهوبة فى مثل هذه الأحاديث وفى حكاية الحكايات .. إلى أن تبدأ فى النهاية فى عرض قطع من الفراء عليها تكون قد جمعتها واحتفظت بها لديها ..

وكانت منذ البداية تستقبل الزائرة وهى تحلى رسغها بالسوار المرصع بالماس .. دون أن تتعمد أن تعرضه عليها لتبيعه لها .. حتى ينجذب هذا السوار عينى الزائرة وتعجب به وتتلهف عليه وتسأل عنه .. وتقول لها سارة :

— إنه ملك إحدى الصديقات .. وتريد بيعه .. ولكنى لا أريد أن أشتريه ولا أدرى كيف أبيعه .. إنى لست مختصة ببيع مثل هذه الأشياء ..

وتقول الزائرة :

— أشتريه أنا ..

وتقول سارة فى بساطة :

— إنها تطلب فيه غاليا .. خمسين ألف دولار .. أى سبعين ألف فرنك ..

وتصيح الزائرة :

— اتفقنا ..

ثم تدفع المبلغ بشيك تكتبه فى الحال ..

وقد استطاعت سارة بهذه الطريقة أن تبيع السوار ثم تبيع المشبك أو الدبوس

المرصع بأكثر من المبلغ الذى كان حدده لها عبد النور رأفت .. ترى هل تحاسب عبد النور على المبلغ الذى حدده أم على المبلغ الذى باعت به .. وابتسمت بينها وبين نفسها .. إن كليهما هى وعبد النور فى سوق واسعة يحاول كل منهما أن يستغل الآخر فيه ..

وكانت سارة قد راعت أن كل زائرة تأتى إليها وفى صحبتها واحدة أو اثنتان ممن يظهرن معها كسكرتيرات أو ربما كجوارى كما كن يعتبرن أيام زمان .. ولكن هؤلاء السكرتيرات غالبا بل دائما من اللبنانيات .. وهى تحس بقوة كل سكرتيرة فى التأثير على سيدتها .. كل منهن تملك القوة والحيلة لدفعها إلى الشراء أو دفعها إلى الرفض .. فكانت منذ البداية تتعمد أن تتبادل نظرات وإشارات بينها وبين السكرتيرة حتى تطمئنها إلى أن لها نصيبا فى هذه العملية .. وتهمس لها بعد أن تنتهى الزيارة وتقبض الثمن :

— سأراك غدا فى البوتيك .. إن حقك محفوظ ؛ وبذلك اكتسبت سارة طائفة السكرتيرات كأنهن أصبحن يعملن معها ويشاركنها فى الربح .. حتى إن كثيرات منهن كن يعرفنها بالزبائن الجدد .. ثم أصبحت سارة مبهورة عندما التقت بالشيخة رضوى .. إنها شخصية عربية من شخصيات القمة .. تتحكم فى ملايين الملايين من الدولارات .. وكانت الشيخة رضوى هى التى أرسلت تدعوها إلى قصرها الذى تملكه فى جنيف بعد أن سمعت عنها وعن الفراء الذى تبيعه .. وذهبت إليها سارة وهى تجند كل مواهبها لاكتسابها .. اكتساب هذه الملايين .. وكأن الشيخة رضوى قد اطمأنت إلى سارة وهى غارقة فى السمار .. اطمئنان السيد إلى الجوارى .. وأدمنت متعتها بالتطلع إلى صف اللؤلؤ الذى يطل من بين شفتيها .. إنه نوع من الجمال تجمعه النساء الثريات حولهن يتزين به .. وقد ضمتها الشيخة رضوى إلى بلاطها المزدحم بكل أنواع النساء .. واستطاعت سارة بالحكايات التى لا تكف عن روايتها أن تكون أقرب إليها من كل النساء .. حتى قالت لها بعد أيام :

ـــ إننا هنا نلتقى كأننا فى اجتماع رسمى .. وكل الناس تتطلع إلينا وتجرى وراء أخبارنا .. لماذا لا نلتقى عندى فى البيت لننطلق بعيدا عن الرسميات وكأننا وحدنا فى العالم كله ..

ووافقتها الشيخة رضوى وعيناها تبرقان متطلعتان إلى عالم مجهول جاءتها الدعوة إليه .. وتسللت فى إحدى الليالى وذهبت إلى سارة فى بيتها وليس معها سوى جاريتين من جواريها .. واستطاعت سارة أن تمتعها بسهرة لم تكن تستطيع أن تسهرها فى قصرها ..

ولكن سارة تريد أن تستغل الشيخة رضوى فى صفقة تحقق لها أرباحا خاصة .. وهى لم يعد لديها شىء من المجوهرات التى تركها لها عبد النور لتبيعها .. وهى لن تبيع أبدا الخاتم السوليتير الذى تحتفظ به فى أصبعها .. إنها لا تزال مصممة على أنه شبكة زفافها .. وقد مر السبت والأحد ولم يصل عبد النور .. ولم تتحسر حسرة كاملة أو تحس بعذاب الانتظار .. إنها مشغولة .. إنها لا تستطيع أن تترك الشيخة رضوى وتتفرغ للقائه .. ولعله هو الآخر مشغول .. ولكنها اتصلت به فى القاهرة بالتليفون .. وتعمدت أن يكون حديثها حديث عمل حتى لا تتركه يشمت فى لهفتها إلى لقياه .. وداعى العمل يفرض عليه أن يأتى إليها .. ووعدها .. ولكنه لم يحدد اليوم الذى سيصل فيه .. وهى تريد أن تصل إلى شىء تبيعه إلى الشيخة رضوى .. وقررت أن تشترى هى من الأسواق ما تستطيع أن تبيعه .. وذهبت إلى محلات شابتو التى سبق أن باعت لها الزمردة التى تركها لها عبد النور ..

ودخلت بخطواتها الثابتة إلى المدير الذى استقبلها مرحبا .. إنه لا ينسى العملية التى قامت بها للمحل .. وقالت له من خلال صف اللؤلؤ الذى يكشف عن ابتسامتها :

ـــ إنى لا أريد أن أشترى .. ولكنى أريد أن أبيع من كل ما تعرضونه للبيع .. وقد سبق أن بعت لكم الزمردة وحسبتم نصيبى بخمسة فى المائة من المبلغ

الذى بيعت به .. وأعتقد أنى ظلمت بهذه النسبة .. فما هى النسبة التى يمكن أن أحصل عليها دون أن أحس بأنى مظلومة .. أو مغفلة ..

وقال المدير ضاحكا كأنه يخفف عنها :

ـــ هل تسمحين لى أولا بأن أعرض عليك ما أصبحت عليه الزمردة التى بعتها بها ..

ثم رفع سماعة التليفون واتصل بمساعديه ودخل واحد منهم يحمل صندوقا عريضا من القطيفة الزرقاء فتحه أمام سارة فشهقت شهقة عالية كأنها صرخة .. وقد فوجئت بروعة وغرابة ما أمامها .. إنه قلادة للرقبة تتدلى حتى الصدر .. أى بانتتيف » .. تتوسطها الزمردة التى تعرفها سارة ويحيط بها مجموعة من فصوص الماس بين أسلاك من البلاتين ..

وصاحت سارة :

ـــ إنى لا أستطيع أن أقاوم كل هذا الجمال .. ترى كم تريدون ثمنا له ..

وأغلق المدير العلبة القطيفة الواسعة كأنه يخفى القلادة عن عينيها رحمة بها قبل أن تبهر بها إلى حد أن تفقد وعيها .. وقال فى بساطة :

ـــ لقد حددنا ثمنا مائة وعشرين ألف فرنك سويسرى ..

وهدأت سارة بعد أن استراحت عيناها من بريق الحلية الرائعة .. وتذكرت أنها باعت لهم الزمردة بسبعة وعشرين ألف فرنك .. وقد استغلوها فى هذه الصياغة التى يبيعونها بمائة وعشرين ألفا .. وسرحت بخيالها كأنها تجرى بين زبائن السوق ..

وتصورت أنها تستطيع أن تبيعها بأغلى من هذا المبلغ الذى حدده المحل .. إن لديها أسواقا لا تستطيع مثل هذه المحلات أن تصل إليها .. ثم اعتدلت فى جلستها وتحدثت بلهجة سيدة أعمال وقالت :

ـــ سأحادثك بصراحة .. فى منتهى الصراحة فإنى أريد أن أحتفظ بثقتكم فى التعامل معى .. فأنا أستطيع أن أبيع لكم هذه البانتتيف اليوم .. فلو حققت

البيعة بالثمن الذى تطلبونه فسيكون من حقى أن أحصل على عشرة فى المائة من الثمن .. ولكن لنفرض أنى استطعت أن أبيعه بمبلغ أكبر .. فهل يكون من حقى أن أنفرد بالزيادة التى حصلت عليها .. أى لو بعت بمائة ألف وعشرين فيكون لى عشرة فى المائة .. وإذا بعت بأكثر فيكون لى هذا المبلغ الأكثر مضافا إلى العشرة فى المائة ..

وفوجىء المدير وارتج لسانه كأنه يواجه عملية من نوع جديد لم يمر بها ثم قال متلعثما :

ـ لا أظن أن هذا يمكن أن يكون حقا لك .. فالبضاعة ملك لنا ومن حقنا أن نحصل على كل المبلغ الذى تباع به .. سواء كان أكثر أو أقل مما ننتظر ..

وقالت وهى تبتسم كأنها تحذره :

ـ لا تنس أننى يمكن أن أبيع بهذه الزيادة دون أن أبلغكم بها ..

وقال المدير كأنه يتحداها :

ـ لا يمكن .. إن إيصال الثمن يجب أن يصدر من المحل .. وأن نعرف اسم المشترى حتى لو احتفظنا به سرا .. إلا إذا كنت أنت التى تشترى ويصدر الإيصال باسمها بعد أن تدفع .. وبعد ذلك يكون من حقك أن تتصرفى بالبضاعة كما تريدين ..

وقالت فى هدوء خبيث :

ـ إنى لا أريد أن أتعامل معكم كمشترية .. أريد أن أكسب ثقتكم فى التعامل معكم بأن أبيع لكم لا أن أشترى منكم .. ولكنى مقتنعة بأن من حقى أن أحصل على أى زيادة فى المبلغ الذى أبيع به من المبلغ الذى تحددونه ..

وابتسم المدير ابتسامة حائرة ثم استأذن منها وخرج من غرفة مكتبه .. ربما ذهب لاستشارة رؤسائه الأعلى منه فى إدارة العمليات .. وجلست منتظرة فى هدوء وهى فى ثقة بنفسها وبعقليتها التجارية التى عاشت بها كل هذه السنوات الطويلة .. إلى أن عاد إليها وقال فورا وهو يأخذ مقعده :

ـ إننا نثق فى أمانتك وكفاءتك .. وهى ثقة تؤكدها ما لدينا من معلومات عنك .. إننا نعرف أنك من مصر وأنك حصلت على الجنسية البريطانية بزواجك من مستر مايكل ستيوارت زفنجستون الذى كان يعمل فى محلات هارودز وافتتحت معه « بوتيك فاتيما » هنا فى جنيف .. ومعروف عنك أنك فى منتهى النجاح ولم يعترض نشاطك أى شىء مما يؤخذ عليك ..

وقاطعته سارة فى دهشة :

ـ كيف عرفتم كل هذا .. كأنك تتلو أمامى تقريرا من المخابرات ..

وقال المدير مبتسما فى زهو :

ـ إن كل شركة تجارية محترمة لها مخابرات تجمع كل أسرار السوق .. وقد تجمعت المعلومات عنك منذ بدأت تتعاملين معنا بقطعة الزمردة التى اشتريناها منك .. وأحب أن أقول لك إنه رغم كل هذه الثقة فإن أى عملية يساهم فيها المحل معرضة للمخاطر التى يمكن أن تواجهنا .. وطبعا نضطر إلى مواجهة المخاطر حتى نحقق الأرباح التى نسعى إليها .. لذلك فلا يمكن أن نترك لك حرية بيع هذه القلادة ويكون لك الحق فى الانفراد بكل فائض الربح .. يجب أن يكون لنا نصيب نواجه به ما نتعرض له من مخاطر .. لذلك قررنا أن يقوم تعاملنا على أساس أن يكون لك عشرة فى المائة من الثمن الذى يحدده المحل ويكون لك فى الوقت نفسه خمسون فى المائة من المبلغ الذى يزيد على هذا الثمن .. أى سيكون لك معنا حسابان .. حساب على أساس المبلغ الذى نبدأ بتحديده .. بحيث لا يقل عنه ثمن البيع .. ثم حساب على أساس الزيادة التى تصلين إليها فى بيع هذه القلادة ..

وقالت سارة وهى تائهة فى خواطرها :

-إنكم حريصون أكثر من اللازم .. ورغم ذلك فإنى أقبل شروطكم لأنى أريد أن أقيم تعاملا دائما معكم .. وقد تزدادون كرما مع ازدياد ثقتكم بى .. والآن هل يمكن أن آخذ هذه القلادة معى لأعرضها على من أختار أن أبيعها لهم ..

وصاح المدير صيحة إصرار :

— مستحيل .. لا يمكن أن نتركها لك لتختفى بها .. من يدرى .. ربما تخطف منك أو تضيع .. أو ..

وقاطعته سارة ساخرة :

— أو أفر بها ..

واستطرد المدير قائلا كأنه لم يسمعها :

— إن الإجراءات المتبعة .. هى أن تحددى موعدا معينا ومكانا معينا لحيازة هذه القلادة لفترة محددة فنرسلها إليك مع مندوب خاص .. وتحددى موعد إعادتها حتى يعود المندوب إليك ويتسلمها منك ..

وزفرت سارة فى زهق وهى تسمع كل هذه الإجراءات كأنها أمام بوليس اسكتلنديارد يفرض عليها مراقبتها .. كأنها متهمة أو مشتبه فيها ..

وقالت وهى تلوى شفتيها كأنها قرفانة :

— إنى أريد أن تكون هذه القلادة معى فى بيتى فى الساعة السادسة مساء .. وتبقى معى حتى ظهر اليوم التالى .. أى حتى الساعة الثانية عشرة صباحا على الأقل ..

وكتب المدير عنوان بيتها ثم بدأ يكتب ورقة أخرى من عدة سطور ناولها لسارة قائلا :

— هذا هو إيصال التسلم الذى تعطينه لمندوبنا بعد أن يصل إليك بالقلادة .. أرجو أن توقعى بإمضائك الآن ..

وقالت فى دهشة ..

— ولكن القلادة لم تصلنى بعد حتى أوقع على إيصال تسلمها ..

وقال المدير وهو يبتسم ابتسامة سخيفة :

— إنى فقط أريد أن أرى إمضاءك بعينى .. وسأعيد إليك الإيصال موقعا منك لتحتفظى به حتى تتسلمى القلادة ..

أى أنه يريد أن تسجل إمضاءها امامه حتى يحتفظ بصورته خوفا من أن تزور إمضاء آخر تعطيه للمندوب الذى سيحمل لها القلادة ..

إلى هذا الحد يفرضون إجراءات لحماية أنفسهم ..

ووقعت سارة على الإيصال بسرعة وتركت المدير يسجل صورة توقيعها ثم خطفت منه الإيصال كأنها تخشى أن يحتفظ به قبل أن تتسلم القلادة .. وقفزت خارجة من أمامه وهو يودعها صائحا وراءها :

— أتمنى لك التوفيق ..

ونطقت كلمة باللغة العربية ربما لم يسمعها :

— يارب ..

وكان كل ما تتعلق به سارة من آمال هو أن الشيخة رضوى ستزورها هذا المساء فى بيتها كما وعدتها .. وستحاول أن تبيع لها هذه القلادة .. ولن تبيعها بمائة وعشرين ألف فرنك كما يطالب أصحابها .. بل ستبيعها بمائتى ألف دولار .. ستحدد الثمن بالدولار لا بالفرنك فإن كل العرب يتعاملون بالدولار .. ولا يعرفون أى عملة أخرى .. حتى فى البلاد التى لا تتعامل بالدولار وتتعامل بالفرنك — عملتها الخاصة — كسويسرا .. وخواطرها تنطلق من ذكائها ولا تتوقف عن تحديد كل حركة وكل كلمة ستلجأ إليها لتحقيق الصفقة ..

وفى الساعة السادسة وصل إليها مندوب محلات شابتو يحمل العلبة الواسعة التى تضم القلادة .. وفتحتها سارة واطمأنت على ما فيها ثم أعطت المندوب الإيصال المطلوب دون أن تتبادل معه كلمة .. ثم تركت العلبة على مائدة فى وسط البهو الذى أثثته على الطريقة العربية ونثرت على جوانبه الوسائد والمخدات وهو البهو الذى تعودت أن تستقبل فيه الشيخة رضوى لتوفر لها الراحة والجو الذى تطلق فيه كل أحاسيسها دون أن تحس أنها فى غربة .. ثم أخذت تعد نفسها بكل ما تتصور إنه يجذب الشيخة رضوى أكثر إليها .. حتى أنها تركت شعر رأسها مفرودا سائلا على كتفيها ويغطى وجنتيها .. إنها لا تنكر إحساسا بأن الشيخة رضوى تتعلق بها كجارية لها هذا اللون الأسمر الداكن .. ولكن حتى

الجوارى يجب أن يكون لهن ما يبهر الأسياد .. سواء كانوا أسيادا من الرجال أو النساء ..

ووصلت الشيخة رضوى ومعها جواريها .. أو السكرتيرات .. وبينهن كما هى العادة دائما جارية لبنانية .. وهللت سارة فى استقبالها .. واجلستها على الوسادة فى البهو العربى وأخذت تصب فناجين القهوة وهى لا تكف عن رواية حكايات وأخبار .. والشيخة رضوى تستمع فى لهفة وتريد المزيد مما تستمع إليه .. وتعلق بكلمة أو قد تطلق ضحكة .. وتمد يدها وتمسح برفق على شعر سارة المتسدل على وجنتيها .. إلى أن قالت سارة :

— لقد كدت أجن هذا الصباح .. فقد كنت أطوف بالإسواق وعرض على جواهرجى قلادة أذهلتنى وأحسست كأنى يمكن أن أطير بها إلى السماء .. وتمنيت أن أشتريها .. حتى لو دفعت عمرى كله ثمنا لها .. ولكن كل عمرى لا يكفى لشرائها .. فهى تباع بثمن غال .. غال على .. ورغم ذلك فإنى لم أستطع أن أتركها دون أن أعرضها عليك .. إنى لا أطيق أن أرى جمالا لا تريته معى .. واستطعت أن أقنع صاحب المحل بأن يقرضنى هذه القلادة ساعات حتى تريها معى ..

وقفزت سارة وفتحت العلبة الواسعة وأخرجت القلادة وفردتها بين يديها أمام عينى الشيخة رضوى التى نظرت فيها مبتسمة فى هدوء وكأنها تعودت أن ترى كل أنواع التحف .. وقالت ضاحكة :

— إنها فعلا تكاد تطير بنا إلى السماء ..

واقتربت سارة من الشيخة رضوى وأخذت تلف القلادة حول عنقها وهى تقول ضاحكة :

— لا تطيرى وحدك .. خذينا معك ..

وعلقت القلادة حول عنق وصدر الشيخة ثم أسرعت وحملت مرآة لتريها لها وهى على صدرها .. وهى تهلل إعجابا وبقية الجوارى يرددن كلمات الإعجاب والانبهار كأنهن يزغردن .. والشيخة رضوى نفسها تبدو فى منتهى السعادة

والاعتزاز بما تزينت به .. ودار حديث طويل حول أسواق وأنواع المجوهرات التى مرت فى حياة كل منهن .. إلى أن همت سارة بأن ترفع القلادة عن عنق الشيخة رضوى قائلة وكأنها تتحسر :

— سأعيدها إلى المحل ..

وقالت الشيخة رضوى فى بساطة :

— لا داعى .. اتركيها لى .. كم ثمنها ..

وقالت سارة وهى تحس أنها تقترب من نهاية تحقيق العملية :

— إنهم يطالبون بمائتى ألف دولار .. ولكنى لم أحاول معهم تخفيض هذا الثمن ..

وقالت الشيخة رضوى فى هدوء :

— لا داعى .. سأشتريها ..

ثم نظرت إلى الجارية اللبنانية .. نظرة صامتة ولكنها تحمل أمرا .. وفتحت الجارية اللبنانية حقيبتها وأخرجت دفتر شيكات وأخذت تكتب فيه .. والتفتت إليها سارة وقالت فى لهجة جادة تكاد تشطب ابتسامتها .. كأن إحساسها بمسئولية العمل قد تغلب على كل ما تبذله لإرضاء الزبائن :

— باسم من ستكتبين هذا الشيك .. لا تكتبيه باسمى .. اكتبيه باسم محل المجوهرات شايتو ..

ولعلها كانت تريد أن تثبت أيضا أنها لا تأخذ شيئا من هذا الثمن ..

ونظرت الجارية اللبنانية إلى الشيخة رضوى كأنها تريد رأيها فيما تقول سارة .. وقالت الشيخة رضوى :

— إننا لا نكتب الشيكات بأى اسم ..

وفعلا أعطت اللبنانية لسارة شيكا بمبلغ مائتى ألف دولار وحق صرفه لحامله .. أى بلا أسماء .. ونظرت سارة إلى اللبنانية وهى تتناول الشيك نظرة لا تخلو من معنى وعدها بأنها سيكون لها نصيبها .. ولكنها نقلت عينيها إلى الإمضاء

الذى يحمله الشيك .. إنه ليس إمضاء الشيخة رضوى .. لعله إمضاء هذه الجارية اللبنانية نفسها .. وأصابها إحساس بالحيرة .. ترى هل يكفى إمضاء هذه اللبنانية .. وتجمدت ساهمة لا تستطيع أن تقول شيئا .. ولا أن تضحك .. ولا حتى أن تحتفظ بابتسامتها .. وشدتها الشيخة رضوى من شعر رأسها وأخذتها على صدرها وهى تصيح فيها :

ـــ ماذا جرى لك يا بنت .. لماذا تجمدت هكذا .. اضحكى ..

ثم شدت الشيخة رضوى سوارا من معصمها .. ومدت به يدها إلى سارة وهى تقول ضاحكة :

ـــ خذى هذا السوار بدلا من القلادة التى أخذتها منك ..

لعلها اعتقدت فعلا أن سارة قد خسرت لأن القلادة لم تعد لها ..

ونظرت سارة إلى السوار الذى أخذته .. إنه حلقة من الذهب مرصعة كلها بفصوص من الماس لا يقل حجم الفص منها عن ثلاثة قراريط .. ربما كان ثمن هذا السوار أكبر من ثمن القلادة .. إنه منحة ضخمة .. منتهى الكرم العربى .. وتستطيع أن تطمئن الآن على الشيك الذى تسلمته .. إن هذا السوار يعوضها عنه .. وانطلقت بفرحتها حتى أخذت تقبل يدى الشيخة رضوى وتقبل أيضا قدميها ..

إنها أكبر صفقة حققتها فى حياتها ..

ولعلها وصلت إلى نصف مليون دولار إذا أضافت عمولتها إلى ثمن السوار الذى أهدى إليها .. ربما أكثر .. مليون دولار فى عملية واحدة ..

ورغم ذلك ففرحتها لا تستقر .. موجات من القلق والحيرة والخوف تعترضها .. وحتى بعد أن انتهت سهرة الشيخة رضوى لا تستطيع أن ترتاح وتنام .. وتراودها خيالات مزعجة .. ربما لن تتمكن من صرف هذا الشيك .. وربما كانت فصوص هذ السوار كلها مزيفة .. حتى الأثرياء العرب أصبحوا من كثرة ما خدعوا يسبقون هم بالخداع ..

وفى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى كانت لدى محل الجواهرجى وقدمت للمدير الشيك .. وذهل وهو يقرأ الأرقام التى يحملها .. وبدأ بإرساله إلى البنك ليتأكد من صرف المبلغ .. وقد صرف المبلغ فعلا وحالا .. وعرفت أن معظم أفراد مجتمع البترول لا يصدرون الشيكات فى عملياتهم الخاصة تحمل أى أسماء .. إنما دائما لحاملها .. كأنهم حريصون على إخفاء أسرار علاقاتهم .. وفى الغالب لا يوقعون الشيكات بأنفسهم .. إنما لكل واحد من يعتمد عليه ويخصص له رصيدا يصرف منه باسمه .. إنها معلومات جديدة اعتمدت عليها فى التعامل مع زبائن هذا المجتمع .. وأضافت إلى ما اطمأنت إليه أن عرضت السوار على المدير .. إنه حر مائة فى المائة .. وفصوصه غالية .. غالية جدا .. إن المحل مستعد أن يشتريه منها بأكثر من الثمن الذى باعت به القلادة .. ولكنها لن تبيع .. على الأقل ستنتظر إلى أن تحتاج إلى بيعه ..

وخرجت من محل الجواهرجى وهى تحس أنها أصبحت مليونيرة .. ليس مليونا واحدا ولكنها ملايين ..

ورغم ذلك فقد بدأت تحس بثقل غريب .. ثقل تنوء تحته كل أحاسيسها .. إن الملايين ثقيلة ..

ولكنها تتحامل على نفسها ولا تتوقف عن السعى إلى المزيد ..

وفوجئت بعبد النور رأفت معها فى جنيف .. إنه ليس يوم السبت ولا الأحد .. وكأنها لن تستطيع أن تضع نظاما ثابتا لحياتهما معا .. إن حياته كلها مفاجآت .. ولعل حياتها هى الأخرى أصبحت مفاجآت .. كل يوم مفاجأة .. لعل هذه هى طبيعة أهل التجارة .. أهل السوق ..

و لم تتجمد صامتة عندما واجهته هذه المرة فى انتظار أن يأخذها .. أحست كأنه من المفروض أن يأخذها .. شىء عادى أن يأخذها .. فلم يعد عبد النور غريبا .. و لم يعد فيما بينهما انتظار شىء جديد .. لذلك بدأت معه مهللة بأنها

باعت له المجوهرات التى تركها لها .. وباعتها بأغلى مما طلبه منها أن تبيعها .. ثم قالت ضاحكة :

— هل سيكون نصيبى من الثمن الذى بعت به .. أم من الثمن الذى حددته أنت ؟..

وقال وهو ينظر إليها فى دهشة كأنه يرى فيها شخصية أخرى غير التى تعودها منها .. شخصية أقوى كأنها أصبحت فى نفس قوته :

— كما تريدين أنت ..

وقالت وهى تضغط على يده كأنها تطمئنه :

— لا .. كما تريد أنت ..

ثم أخرجت من حقيبتها إيصالات بالمبالغ التى باعت بها وكانت قد وضعتها كلها باسمه فى البنك الذى يحتفظ فيه برصيده .. وقالت وصف اللؤلؤ يقترب من شفتيه وذراعاها تمتدان إلى أحضانه :

— أنت أستاذى الذى فتح أمامى هذه السوق التى كنت بعيدة عنها .. سوق المجوهرات .. وأحب أن أقول لك إننى عندما تأخرت على استطعت أن أتعامل فى السوق وحدى وقمت ببيع قطع لحساب جواهرجية من جنيف ..

وابتعد عنها كأنه صدم وقال كأنه يؤنبها :

— لماذا تتعاملين مع أى غريب .. إنى أستطيع أن أشترى ما شئت من أى جواهرجى وأعطيك ما أشتريه لتبيعيه لحسابى أنا .. لا لحساب أى تاجر آخر .. إن هذا يحقق لنا ربحا أكبر .. فإنى من أهل السوق وأستطيع أن أشترى أرخص وأن تبيعى أنت أغلى .. إن التاجر الذى يسلمك قطعة على أساس أن ثمنها عشرة آلاف أستطيع أن أشتريها منه أنا بخمسة آلاف .. فإذا بعتها أنت بعد ذلك تضاعف ربحنا منها ..

وقالت وهى تعود إلى أحضانه :

— اشتر ما شئت وسأبيعه لك .. ولكن لا تحرمنى من حريتى فى التعامل مع أى تاجر آخر .. وأنت دائما صاحب الفضل على .. أستاذى ..

وتعمدت أن تلتصق به أكثر وهو ما يزال مطبق الشفتين ساخطا ..

وكانت هى التى أخذته هذه المرة ولم تنتظر حتى يأخذها ..

عجيبة .. إنها لا تحس بالتلاشى فى متعتها كما كانت تحس دائما معه ..

وقد تركها فى اليوم التالى عائدا إلى القاهرة بعد أن ترك لها ثلاث قطع من الحلى الجوهرة بفصوص الماس .. وهى تقلبها فى يديها ساخرة .. إنها قطع صغيرة ليست فى مستوى التحف الرائعة التى تحصل عليها من محلات شابتو ..

ورغم الثقل الذى كانت قد بدأت تعانيه .. والذى جعل منها إنسانة عصبية تتخذ أحيانا قرارات باترة بالنسبة لصديقاتها وزبائنها كانت لا تحتاج إليها من قبل مهما تحملت .. رغم ذلك فهى لا تزال تعمل ويتسع نشاطها حتى يشمل المدينة كلها .. لقد استطاعت أن تتعامل مع كل باعة المجوهرات .. وتكتسب الجميع .. واستطاعت أن تضاعف من عدد صديقاتها وزبائنها من الثريات العربيات .. بل إنها كونت شبه شركة تجمع كثيرا من الجوارى والسكرتيرات يدفعن إليها أسيادهن لتبيع .. وتدفع للجوارى والسكرتيرات نسبة من نسبة أرباحها التى تصل إليها .. كأنها أصبحت زعيمة عصابة ..

وظلت كما هى تحتفظ بعمليات بيع المجوهرات لحسابها الخاص .. ولا تطلع زوجها مايكل على أى شىء .. إنما فى الوقت نفسه تطلعه وتحاسبه على مبيعات الفراء أو على مبيعات المطالب النسائية التى يعرضها بوتيك فاتيما .. بوتيك فاطمة .. وتتركه يسجل الحسابات كما يريد .. لا تراجعه فى شىء .. ولا يهمها ما وصل إليها نصيبها ونصيبه ونصيب شريكهما الثالث السويسرى الذى من المفروض أنه يمتلك البوتيك .. إنها لم تفقد ثقتها أبدا فى زوجها مايكل .. إنه رغم كل شذوذه تؤمن به كعبقرى من عباقرة السوق وستظل دائما فى حاجة إليه ..

وكانت أحيانا تلوم نفسها لأنها أصبحت لا تهتم بإعطائه الليالى التى تتحمل فيها شذوذه .. إن أعصابها لم تعد تتحمل ما تبذله من معاناة لإعطائه .. وهو صابر .. لعله يستعين على الصبر بشلة الأصدقاء التى جمعها فى جنيف .. ولكنه احتفل بها يوما وهما لا يزالان فى البوتيك .. وقال وابتسامته تسبح على شفتيه :

— هل نحن لا نزال زوجا وزوجة ؟

وقالت وهى تخفى عنه عينيها :

— إننا لا نعيش كزوجين .. ما يربطنا أقوى من ذلك بكثير .. إننا نعيش مطالب الحياة ولن أستغنى عنك أبدا ..

وقال بصوته الرفيع المائع :

— إن حياتك تتباعد عن حياتى .. إنك لا تشركيننى فى عمليات الجواهر التى أصبحت تأخذك كلك ..

وقالت فى دهشة :

— كيف عرفت بأنى أصبحت مهتمة بعمليات الجواهر .. وماذا تعرف أيضا ؟

وقال ساخرا وهو يتمايل بقوامه اللين :

— الأسرار لا تعيش طويلا فى السوق .. وقد أصبحت أنت مشهورة بشخصك أكثر من شهرة بوتيك فاتيما ..

وقالت فى حدة :

— إنى لا أشغل نفسى منفردة بأى عملية تدخل فى اختصاص البوتيك ..

وقال ضاحكا ضحكة بلا معنى :

— ولكن لماذا لا تشركيننى فى عمليات الجواهر أو على الأقل تحتاجين لرأيى فيها ؟.

وقالت فى إصرار كأنها ثائرة عليه :

— سألجأ إليك عندما أحتاج إليك .. وإلى الآن أجد من مصلحة العمل أن تبقى بعيدا عنه .. واتركنى حرة ..

وقال كأنه طفل يهم بالبكاء :

— أنت حرة .. وأنا حر .. ولا أدرى إلى أين ستنتهى هذه الحرية بكل منا ..

وحتى فى هذه الليلة لم تستطع أن تقدم على مصاحبته حتى تعطيه ما يربطه بالحاجة إليها .. إنها لم تعد تستطيع أن تعطيه .. ولم تعد تستطيع أن ترى ما سينتهيان إليه ..

الحلقة العاشرة

كم مضى ..

سبع سنوات ..

والسوق تتسع أمامها .. والملايين المتجمعة فى رصيدها تتضاعف .. حتى إنها أصبحت محتفظة بها فى أكثر من بنك .. داخل سويسرا .. وفى بنوك لندن .. وبنوك باريس .. وبنوك فرانكفورت فى ألمانيا .. بل وفى القاهرة أيضا .. وهو رصيد يجمع كل أنواع العملات .. لها رصيد بالدولار .. ورصيد بالاسترليني .. ورصيد بالفرنك .. ورصيد بالجنيهات المصرية .. إنها تفهم الآن فى سوق الأرصدة المالية .. وتعيش كل حياتها فى أرقام ولكنها أصبحت تحس بثقل الحياة أكثر .. وتعانى من انهيار أعصابها انهيارا لم تعد تعرفه من قبل .. وكان كل رقم من هذه الأرقام التى تعيشها دبوس يشكها فى عروقها ويكاد يدميها .. وقد أصبحت تقدم على أى عملية بلا اندفاع .. ودون أن تعيش الأمل فى أن تكسب أو يسيطر عليها الحرص فى ألا تخسر .. إنها تقوم بعمليات روتينية كأنها عمليات ميكانيكية تعودت عليها وأصبحت تتحرك تلقائيا حتى لم تعد فى حاجة إلى عقلها ليحدد لها حركتها .. حتى الجهد الذى تبذله لاكتساب الزبائن بإطلاق خفة دمها .. وتسليط قوة جمالها الأسمر الداكن الجذاب .. وضحكاتها الرنانة التى تكشف عن صف اللؤلؤ الناصع بين شفتيها .. والسهرات الخاصة التى تقيمها فى بيتها لتترك كل زبونة تنطلق حرة بنوع من الحريات لا تجدها إلا لديها .. كل ذلك أصبحت تحس بأنها تطلقه بافتعال .. إنها تفتعل الكلمة .. وتفتعل الضحكة .. وتفتعل اللمحة التى تحملها المعنى الذى تريده .. لا شىء ينطلق من طبيعتها ويزودها بأى فرحة .. حتى المكاسب

التى تحققها لم تعد جديدة عليها حتى تفرح بها الفرحة التى تطير بها كما كانت تطير مع كل قرش يصل إليها عندما بدأت ..

ماذا عادت إليها به كل هذه الملايين .. إنها تعيش فى بيوت فاخرة .. ولكنها أصبحت تحن إلى البيت المتواضع الذى عاشت فيه بإحدى حوارى شارع الهرم عندما كانت فى صباها .. وهى تستطيع أن تشير بأصبعها لتوضع أمامها أغلى وأرقى أطعمة العالم ولكنها لا تزال لا تجد المتعة إلا فى طبق المصقعة الذى تطبخه بنفسها .. وهى تستطيع أن تضع فى خدمتها سيارة رولزرويس أو بويك أو مرسيدس .. وقد اشترت فعلا أكثر من سيارة .. ولكنها إلى اليوم لا تستريح وتهنأ إلا إذا أوقفت فى الشارع سيارة أجرة لتركبها .. حتى عندما تنتقل طائرة من بلد إلى بلد .. إنه من المفروض أن تجلس على أحد مقاعد الدرجة الأولى بين طبقة الأثرياء .. ولكنها لا تزال تفضل أن تجلس على أحد مقاعد الدرجة الثانية مع القوم العاديين .. إنها تحس براحتها أكثر بينهم .. وتتسلى أكثر بتتبع ما يجرى وما تسمعه من حولها .. تحس أنها فى دنياها وليست فى دنيا تفتعلها وهى جالسة بين أفراد الطبقة الثرية .. وكانت تقول لنفسها أحيانا إنها ربما أصبحت تعانى هذا الثقل وهذا الزهق لأنها أصبحت عجوزا تعدت شبابها .. والعجوز لا يعيش ما هو فيه ولكنه يعيش ذكريات أيام صباه وشبابه .. يعيش أيام الفقر حتى بعد أن يصبح من أصحاب الملايين .. وتقوم لتقف أمام المرآة لترى نفسها بعد أن أصبحت عجوزا .. أبدا .. إنها وهى فى الثامنة والثلاثين من عمرها لا تزال تحتفظ بكل ما كان لها وهى شابة فى العشرين .. سمارها الداكن الذى يحمل لمعة تشد العيون إليه كأنه سمار قطعة من السحاب تطل من السماء والناس تتطلع إليها فى شوق إلى أن تمطر عليه وشعرها الأسود الناعم الذى ينزلق فى هدوء حتى كتفيها وتحيط خصلاته بوجنتيها .. واللؤلؤ اللامع الذى تكشف عنه شفتاها كصف من المجوهرات

تتمنى كل شفاه الخلق أن تلمسه وتتذوقه .. وقوامها الرشيق الطرى الذى لا تبدو فيه أى قطعة من عظامها .. لا .. إنها لا تزال فى منتهى جمال شبابها ..

وترفع أصبعها الذى يبرق فوقه خاتم السوليتير . لقد ضاقت أيضا بهذا الخاتم وزهقت منه .. وتمنت أن ترفعه وترميه .. أو على الأقل تبيعه .. ولكنها لا تزال تتحايل على نفسها لتظل محتفظة به .. محتفظة بالرجل الوحيد الذى أحست بأنها زفت إليه .. وقد كان زفافا فى الحرام .. كان الخطيئة الوحيدة فى حياتها .. ولعل الإنسان فى حاجة إلى الاحتفاظ بذكرى الخطيئة الأولى دائما حتى يكتفى بها ولا ينهار فى مزيد من الخطايا ..

وقد بدأت تقاوم هذا الثقل فى حياتها وهذا الزهق بأن تترك جنيف وتطوف فى بلدان أوروبا . تسافر إلى لندن .. أو إلى باريس .. أو إلى هولندا .. أو ألمانيا .. أو اليونان .. تريد أن تحس بأنها تعيش أوروبا كلها .. ولكن كيف تعيشها .. إنها تحس بأنها لا تعيش إلا كمتفرجة .. وقد أدمنت الفرجة على المصاغات والمجوهرات وقطع الفراء والمطالب النسائية .. فأصبحت حتى وهى تطوف لا تحس بشىء .. يتغير فى حياتها ويريحها من هذا الثقل .. إنها لا تزال فى كل مكان تتفرج وتشترى وتبيع .. وهى لا تصحب زوجها مايكل فى طوافها أبدا .. تريد أن تستريح .. إنها تزوجته كصفقة وتريد أن تهرب من ثقل الصفقات التى حققتها فى حياتها .. ولم تحاول مرة أن تصحب رجلها عبد النور رأفت .. لقد تعودت ألا تراه إلا فى لقاءات صدفة .. ولكنها كانت تضعف أحيانا عندما تلح عليها بعض الصديقات من زبائنها العربيات بأن يصحبنها .. تسافر مع إحداهن أو مع بعضهن وهن متطلعات إلى أن تكشف لهن عن المجهول الذى يسعين إليه .. وهى تحس لمجرد أنهن فى صحبتها بأنها تعمل .. كأنها جارية فى خدمة أسيادها .. وتفتعل الكلمة والضحكة وتفتعل الاندفاع معهن إلى المجهول .. ولا تتحرر من الثقل الذى يكاد يزهق كل أحاسيسها .. وأحيانا تحاول أن تهرب من نفسها .. تهرب من هذه

الملايين .. من الدولارات التى أصبحت تمثل شخصيتها .. فكانت تتعمد أن تسافر فى الدرجة الثالثة .. الدرجة الشعبية .. وتتعمد فى البلد الذى تصل إليه أن تقيم فى أحد الأحياء الشعبية وفى فندق من الفنادق الرخيصة .. لعلها ترتاح من إحساسها بنجاحها وثرائها .. بل إنها كانت أحيانا عندما تصادف شابا فى هذه الأحياء يغازلها ويجرى ملهوفا وراء سترتها الداكنة .. تهم بأن تستجيب له .. لماذا لا تلقى بنفسها فى مغامرة عابرة تخفف عنها هذا الزهق .. ولكنها لا تلبث أن تستعيد بسرعة احترامها لنفسها ويتغلب عليها حرصها بأن تبقى نظيفة لا تلوث نفسها بمثل هذه المغامرات .. وترفع الخاتم الماسى الذى يلمع فوق أصبعها كأنها تستجير به .. وكأنها تقنع نفسها بأنه تكفيها هذه المغامرة ..

ولعلها لم تكن تحس بتخفيف هذا الثقل الذى تنوء به إلا عندما تترك جنيف تسافر إلى القاهرة .. وقد أصبحت تعود إلى القاهرة كثيرا خصوصا فى فصل الشتاء .. فسوق الشتاء فى أوروبا لا تزدحم بزبائنها العرب .. وهى لم تعد فى القاهرة تجرى وراء أى عمل .. ولا تضطر إلى منافقة أى مخلوق .. هم الذين يجرون وراءها وينافقونها .. ومن السهل دائما أن تتخلص منهم وتختفى عنهم .. إنها تحس براحة لا تحس بها أبدا فى أوروبا عندما تجلس مع أمها وإخوتها فى أحاديث عائلية بسيطة يحوطها الحب .. ومن البساطة أن لا أحد من أفراد العائلة على علم بأسرار السوق ومتاعب السوق ليفاتحها فيها ويتعبها .. إنهم يتصورون أن الدنيا كلها فى غاية البساطة والسهولة وتعيش معهم هذه الدنيا البسيطة .. السهلة .. ولا شك أن كلا منهم يحاول استغلالها فى تحقيق مطالبه .. ولكنها لم تكن تضيق بهذه المحاولات .. بالعكس .. كانت تفرح بها كأنها أصبحت مسئولة عنهم كلهم .. بل كانت تعطيهم قبل أن يطلبوا .. وتفاجئهم بما تعطيه فينطلقون مهللين .. لقد اشترت لكل فرد منهم شقة خاصة فى حى من الأحياء الجديدة الراقية .. واشترت لأخيها شقة فى عمارة لم تنته بعد ولن تسلمها له إلا بعد أن يتخرج فى الجامعة .. كما اشترت لكل منهم سيارة .. واختارت أن تكون سيارة

نصر مما يباع محليا حتى لا تدفعهم إلى الغرور بأنفسهم .. ولكنها استوردت لنفسها سيارة مرسيدس ظلت محتفظة بها فى القاهرة ومخصصة لها وحدها .. واشترت لنفسها أيضا قطعة أرض زراعية من عشرين فدانا على ترعة المنصورية .. وهى لا تفهم فى الزراعة ولم يخطر على بالها أى مشروع زراعى .. ولكنها كانت قد سمعت أن أراضى المنصورية قد أصبحت حى كبار الأثرياء فى مصر .. وكل منهم يبنى لنفسه قصرا على أرضه .. وستشترى الأرض وتبنى القصر .. ولا يهمها أى ربح يعود إليها من هذه الأرض أو هذا القصر .. إنها لا تعتمد فى جنى الأرباح إلا على الاتجار بالمجوهرات والفراء وما يقدمه لها زوجها مايكل من حسابات بوتيك فاتيما .. ثم إن ثقافتها الاقتصادية أقنعتها بأن شراء الأرض يوازى وضع الثمن فى بنك .. فالأرض لا تضيع أبدا وثمنها يرتفع بسرعة تفوق أرباح البنك .. فإذا اشترت أرضا فكأنها تدخر أموالها لمستقبل مطمئن .. إنها أحرص من أن تلقى أموالها لتضيع منها ..

وكانت مصممة على أن تحتفظ بالملايين فى بنوك أوروبا ولكنها استطاعت أن تحول جانبا من أرباحها إلى مصر .. حتى تنفق على نفسها وعلى عائلتها بكل هذا البذخ .. ولم يكن يضيع منها شىء بهذا التحويل إلى السوق المصرية .. فهى من الوعى الاقتصادى بحيث تحقق آخر ما تصل إليه ألاعيب السوق السوداء ولا تستسلم أبدا للتحويلات الرسمية. كانت تشترى الجنيه المصرى بربع دولار قبل أن يصل ثمن الدولار الرسمى إلى أكثر من مائتى قرش .. ولها أكثر من طريقة فى الاحتفاظ بأموالها التى تحولها إلى مصر ولكنها كانت حريصة على أن تكون كل هذه الأموال ملكها وملك أمها فى الوقت نفسه .. كل منهما له نفس الحق على هذه الأموال .. إنها لا تريد أن تترك أمها تحت رحمتها فى مدى ما تجود به عليها .. إنها تحب أمها إلى حد لا تقبل أن تكون صاحبة الأمر عليها .. بل أن يكون كل ما لها فى يد أمها ..

وقد اشتهرت سارة فى القاهرة بأنها أصبحت مليونيرة .. والدعوات تلاحقها

كل اليوم إلى مجتمع أصحاب الملايين .. والطامعون فى استغلالها لا يكفون عن متابعتها وعرض المشروعات التجارية عليها .. وهى تواجه الجميع بترفع .. ونادرا ما تقبل دعوة أو تظهر فى مجتمع .. حتى عرف عنها أنها شخصية صعبة وليست سهلة .. أو شخصية مغرورة ثقيلة الدم .. هذه السمراء الداكنة أصبحت كأنها تضع نفسها فوق كل الناس ..

وهى تتعمد فى كل مرة تصل فيها إلى القاهرة زيارة هدى هانم .. سواء فى بيتها أو فى البوتيك الذى تملكه .. وهدى تحس كأن سارة تتكرم عليها بهذه الزيارة .. لا تزال سارة متواضعة .. أو على الأقل لا تزال سارة معترفة بجميل هدى عليها .. إن كل ما وصلت إليه بدأ على يد هدى .. وهدى تشكو دائما مما جرى فى السوق التى أصبحت مزدحمة بمحال بيع المطالب النسائية .. وكل شىء أصبح يصنع فى مصر وتساهم فيه شركات أجنبية .. لم يعد للاستيراد الكامل القوة التى كان عليها فى السوق .. والحل الوحيد الذى تراه هدى هانم هو أن تقيم لنفسها مصنعا خاصا تجمع فيه بعض العاملات وتستورد له أنواعا من الأقمشة .. بحيث تنتج هى أصنافا أرقى مما تعرضه المحلات الأخرى .. ولكن هدى هانم ليس لديها رأس مال كاف لإقامة هذا المصنع .. أو لعلها تريد فقط أن تغرى سارة بأن تشترك معها فى إقامة مشروع جديد .. وبسرعة وبساطة استجابت سارة لمشروع هدى هانم وخصصت لها مبلغا ضخما يكون تحت أمرها .. ولم تبد أى اهتمام بتتبع هذا المشروع . ولا تجادل فيما تطلبه من مصاريف وما حققته من أرباح .. إنها تكتفى فى كل مرة تأتى إلى القاهرة بأن تجلس مع هدى هانم جلسة هادئة كأنها تجلس مع أمها .. وتتركها تقدم لها الحساب كما يقدم لها زوجها مايكل حساب بوتيك فاتيما فى جنيف .. وتوافق وتقبل أى حساب .. إنها ليست فى حاجة إلى هذه الأرباح حتى تتعب نفسها فى مراجعتها ..

وكانت فى كل مرة تصل فيها إلى القاهرة يجب أن تلتقى بعبد النور رأفت .. إنها لم تعد تحس بنفس قوة الرغبة فى أن يأخذها ليعطيها قبل أن تعطيه .. ولكنها

تحس بمجرد التعود .. وتحس فى الوقت نفسه بأنها لا يجب أن تتخلى عنه فقد كان صاحب الفضل عليها فى دفعها إلى سوق المجوهرات .. وكان لقاؤهما الخاص يتم فى الشقة الخاصة التى يملكها عبد النور .. إنها لم تتغير ولكنها لم تعد تتأثر بفخامتها .. أصبحت تحس بأنها أصبحت أرق من أن تلتقى به فى هذه الشقة .. لا شك أنه يلتقى فيها بكل امرأة يريدها .. ولا أمل لها فى أن تكون امرأة تتميز بشىء عن الأخريات .. ولكنها كانت تستسلم .. وعبد النور نفسه تغير أصبحت تحس به أضعف مما كانت تحس به وهى تحبه .. ربما كان نجاحها ووصولها إلى التعامل مع كبار تجار المجوهرات فى أوروبا قد جعله ضعيفا بالنسبة لها .. إنها لم تعد تحس بأنه يأخذها دون أن تعطيه .. بل أصبحت تحس بأنها تعطى بقدر ما تأخذ .. فقدت هذا الانبهار الرائع بشخصية عبد النور .. وينتهى اللقاء بأن يعطيها قطعتين أو ثلاثا من المجوهرات لتبيعها له فى أوروبا .. وتستجيب بلا مناقشة .. إنه هو وهدى هانم صاحبا فضل عليها .. ولكن لقاءاتهما تباعد سواء كان قد سافر إليها فى جنيف أو جاءت إليه فى القاهرة ..

وقد طرأ على خيالها مرة وهى فى القاهرة أن إحساسها بالثقل والزهق ربما يرجع إلى أنها تعيش فى جنيف وحيدة .. لقد أصبحت لا ترى زوجها إلا أثناء ساعات العمل فى الوتيلات .. وكل من حولها بعد ذلك مجرد عملاء .. ليس بينهم من تربطها به علاقة شخصية .. لذلك طرأ على خيالها أن تصحب معها إلى جنيف أختها الصغرى سميرة لتعيش معها هناك وتخفف من وحدتها ..

وسميرة فى الثامنة عشرة من عمرها .. وهى جميلة ولها نفس القوام الممشوق الطرى كأنه ليس فيه أى عظام .. ولكن جمالها ليس له قوة اجتذاب جمال سارة .. ربما لأنها ليست سمراء داكنة .. وقد ورثت سارة السمار الداكن عن أبيها أما سميرة فقد ورثت عن أمها لونا فاتحا يكاد يميل إلى البياض .. وهو لون عادى بين بنات مصر .. ولا شك أن لون بشرة المرأة عامل أساسى فى مدى ما تصل إليه من قوة الاجتذاب .. وقد فرحت سميرة فرحة كبرى كأنها جنت

بفرحتها وهى تسافر مع أختها الكبرى إلى جنيف .. كل أفراد العائلة يحلمون بالسفر لعل أيا منهم يستطيع أن يجمع الملايين التى جمعتها أختهم الكبرى .. ولكن سارة كانت ضنينة عليهم دائما بمصاحبتهم إلى الخارج. كانت تؤمن بأن كلا منهم عليه أن يبنى نفسه بنفسه ويحدد خطواته بنفسه دون أن يعتمد عليها .. إنها هى التى اختارت طريقها دون أن تعتمد على أحد .. إلى أن قررت أن تصحب أختها الصغرى لعلها تخفف من وحدتها ..

ومنذ اليوم الأول بدأت سارة تضيق بوجود أختها سميرة معها .. إن سميرة ليس لها أى هدف جاد .. ولا تحاول أن تتعلم ما تبنى عليه مستقبلها .. ولا تستطيع أن تستوعب أسرار السوق وفن معاملة الزبائن .. حتى فى السهرات التى تقيمها سارة فى بيتها للنساء العربيات لم تكن سميرة تستطيع أن تختار الكلمة التى تقولها أو الحركة التى تقوم بها .. كانت منطلقة دائما كالمجنونة تقول أى كلام وتتحرك أى حركة .. ومن يعرفها قد يعتبرها فتاة ساذجة جاهلة يمكن استغلالها .. وقد يعتبرها البعض الآخر فتاة ثقيلة الدم لا تطاق .. وهى منطلقة دائما كأنها فتاة كانت جائعة وأصبحت تأكل أى شىء دون أن تختار ما تأكله ..

وربما كانت سارة تغالى فى تقدير نواقص أختها وفى تبرير ضيقها منها .. ولعل من طبيعتها أنها لا تحتمل أن يعيش أى أحد معها .. لقد تعودت على أن تكون دائما وحدها .. حتى بعد أن تزوجت استقلت عن زوجها وعاشت وحدها .. وبعد أن أحبت أيضا عبد النور رأفت مالبثت أن استقلت عنه دون أن تدع الحب يفرض أى قيد عليها .. إنها لا تستطيع أن تكون مسئولة عن أى إنسان آخر .. ولا تترك أى إنسان يتحمل مسئوليتها .. ولذلك فقد تكون طبيعتها الشخصية هى التى لا تتحمل أن تشاركها أختها سميرة كل حياتها . خصوصا أن تشاركها مجال عملها الذى يحقق لها الملايين .. أو لعلها تغار منها .. حتى لو كانت متأكدة أنها أجمل وأشد اجتذابا عن أختها سميرة إلا أن سميرة لها حيوية الأصغر ويمكن أن تلفت الأنظار أكثر منها ..

و لم يكن قد مضى سوى ثلاثة شهور وهما فى جنيف عندما قررت ساره أن تتخلص من وجود أختها معها .. وأعادتها إلى القاهرة بحجة حرصهـا على استكمال دراستها ثم زواجها من مصرى قبل أن تقع وقعتها وتتزوج أحد الخواجات .. و لم تجد دموع سميرة فى إقناع أختها بأن تبقى معها .. حتى إنها فكرت فى أن تهرب منها وتعيش وحدها فى جنيف أو فى أى بلد من بلاد العالم .. ولكنها لم تستطع إلا الاستسلام وعادت لتكمل حياتها فى القاهرة ..

وعادت سارة إلى وحدتها .. إن صفقاتها التجارية لا تتوقف .. والملايين ترتفع وتحس بأموالها كأنها أصبحت تتخمها وتسبب لها عسر هضم .. ماذا يعود عليها من كل هذه الملايين .. لم تعد تدرى ماذا تريد .. إلى أن بدأ خاطر جديد يسيطر عليها ..

إن كل ما ينقصها هو أن تكون أما ..

أى أن يكون لها أولاد ..

لمن ستترك كل هذه الملايين إن لم يكن لها أولاد يرثونها .. وقد كانت تعيش وكل من لها هو عائلتها التى تضم أمها وإخوتها .. وهى تحب كل أفراد عائلتها .. ولكن لا يمكن أن يكونوا هم وحدهم الذين يرثونها وتترك لهم كل هذا الثراء .. هناك دائما فرق كبير بين الإحساس بالأخت والإحساس بالابنـة .. وبين الإحساس بالأخ والإحساس بالابن .. وهى لها أخت وأخ وليس لها ابنة أو ابن .. ولا يمكن أن يظل لها مكان فى الحياة حتى بعد أن تموت إلا إذا كان لها أولاد .. وبلا أولاد تنتهى بانتهاء أولادها ..

وهى منذ تزوجت مايكل لم يخطر على بالها أبدا أن تنجب منه .. وهو لم يعرضها أبدا لأن تحمل منه .. ربما لأنه عاجز عن الإنجاب .. ولكنها لا تستطيع أن تقضى بقية العمر دون أن تنجب ..

وبدأت تخطط لنفسها حياة أخرى .. فإذا قدر لها أن تنجب ابنا فيجب أن تنجبه مصريا .. من أب مصرى .. إنها لو أنجبته من أب أجنبى فسيكون ابنا

نفسه أجنبيا عنها كما هى لا تزال غريبة عن زوجها مايكل رغم السنوات التى قضتها معه .. وحتى تستكمل لابنها الشخصية المصرية فيجب أن تعيش به فى مصر .. لماذا لا ..

إنها ضاقت بحياتها فى أوروبا ولا تزال تشعر فيها بغربتها .. فلتعد أولا للإقامة فى بلدها .. وقبل كل شىء يجب أولا أن تنهى زواجها بالإنجليزى مايكل ..

وفاجأته فى إحدى الأمسيات بأن ذهبت معه إلى البيت الذى يقيم فيه .. وبدأت تعطيه بسخاء كأنها تعيد إليه ذكريات شبابهما .. وهو قد عاد كما كان وكأنه لم يغب عنها كل هذه الأيام .. غائبا يتلوى بين ذراعيها فى منتهى المتعة ..

وقالت له وهى تعود وتلبس ثوبها لتعود إلى بيتها :

ـــ مايكل .. لقد قررت أن أنتقل لأقيم فى القاهرة بصفة دائمة ..

وقال فى دهشة وابتسامة تسبح بلعابه فوق شفتيه :

ـــ ولكنى لا أستطيع أن أقيم فى القاهرة ..

وقالت وهى تمسح بكفيها على وجنتيه :

ـــ لا حاجة لكى تقيم فى القاهرة .. ستبقى مسئولا عن البوتيك وترسل لى الحساب أو تنتظرنى إلى أن أعود إليك ..

وقال وقد تجهم وجهه وهو يبتلع المفاجأة :

ـــ ولكننا زوج وزوجة ..

وقامت ضاحكة وهى تميل عليه بصف اللؤلؤ وتقترب بشفتيها من شفتيه :

ـــ إننا أكثر من زوج وزوجة .. إننا أصبحنا شخصا واحدا لا يمكن أن يفصل أحدنا عن الآخر .. وستبقى دائما مسئولا عما أملكه وأنا مسئولة عما تملكه .. حتى إننا لم نعد فى حاجة إلى هذا الزواج ..

واعتدل جالسا كأن صف اللؤلؤ لم يعد يستطيع أن يأسره :

ـــ ماذا تقصدين ؟

قالت من خلال ابتسامتها :

ـ أقصد ألا نكون زوجا وزوجة .. ويكفى أننى نصفك وأنت نصفى ..

وقال كأنه فى هلع ..

ـ تقصدين أن نعلن طلاقنا ..

وقالت فى بساطة :

ـ لم لا .. يتم الطلاق حتى بلا إعلان .. ليس كل الناس يعرفون أننا متزوجون ولا يهم أن يعرفوا أننا طلقنا ..

وسكت مايكل فترة وجبينه معقد كأنه يبذل مجهودا فى تحديد موقفه .. ومن طبيعة العقلية الإنجليزية أنها تواجه الواقع دون أن تهرب منه ما دامت لا تستطيع أن تتحايل عليه .. وقال وعيناه بعيدتان عنها :

ـ كما تريدين .. بشرط أن أبقى مسئولا عن عمليات بوتيك فاتيما كما أنا ..

وقالت فى فرح :

ـ وسأعاونك وأنا فى القاهرة بأكثر مما أقدمه للبوتيك وأنا فيه .. وسأرسل الزبائن لك من هناك .. وأنت كما أنت حر فى إعداد الحسابات ..

ومالت عليه تقبله ..

وقال ساخرا :

ـ كأنها قبلة الوداع ..

وقالت من خلال فرحتها :

ـ لا وداع أبدا بيننا ..

ولم تمر أيام حتى كان الطلاق بين سارة ومايكل قد تم فعلا .. ورغم أنه كان زواجا شاذا يقوم على شذوذ مايكل حتى إنه لا يمثل أى مظهر عائلى من مظاهر الزواج بين اثنين .. إلا أن سارة أحست بمجرد الطلاق أن كل الدنيا تغيرت وأنها هى نفسها قد أصبحت شخصية جديدة ..

وكانت قد قررت أن تعود إلى القاهرة خلال أيام الأسبوع .. وقد حرصت على أن تجمع عناوين من عرفتهن من زبائن عرب البترول .. وتعلنهم أنها قررت أن تقيم مكتبها فى القاهرة .. ولقد كانت فى قرارة نفسها تتمنى أن تكف عن كل العمليات التجارية .. لا تريد أن تستمر فى بيع المجوهرات والفراء ومطالب النساء .. تريد أن تكون ربة عائلة فحسب .. ولكن من يدرى . ربما احتاجت وهى فى القاهرة أن تستمر فى نفس العمليات .. خصوصا وأن أبواب مصر قد فتحت لكل العرب ..

وفى الطائرة كانت تتبع بعينيها قطع السحاب وهى تفكر فى التخلص من الرجل الآخر الذى ربطت نفسها به .. لقد تخلصت من زوجها وبقى عشيقها .. تريد أن تكون فى منتهى الحرية والتجرد وهى تعد لبناء عائلتها الخاصة الجديدة ..

وقد سعت منذ اليوم الأول إلى لقاء عبد النور رأفت فى شقته الخاصة .. وقالت وهى ليست فى لهفة لأن يأخذها ولا هو فى لهفة لأن يعطيها :

ـ أنا أريد أن أكون أما .. أن يكون لى أبناء ..

وقال ضاحكا :

ـ لماذا .. ماذا جد عليك .. على كل حال اعتبرينى ابنك حتى لو كنت أكبر منك سنا .. وستجدين أنى ابن مطيع ومثل أعلى بين الأبناء ..

وقالت جادة دون أن تضحكها النكتة :

ـ إنى لم أضعك .. ولكنى سأضع ابنى .. سأضعه كما أريد حتى أطمئن على مصير ما حققته حتى اليوم ..

وقال وقد عادت إليه شخصية الأستاذ فى شئون الحياة :

ـ لا تعتمدى على الأولاد فى تحقيق أى مصير .. انظرى إلى .. إنى أب لولدين كنت أتمنى أن يشاركنى أحدهما فى عملى .. وأزهو به وهو يحمل اسم

قبلى ليس فى جيبى

أكبر عائلة جواهرجية فى مصر .. ولكن أحدهما سافر إلى أمريكا و لم يعد والثانى جمع الدنيا كلها على أوتار كمانه ولا يحاول أن يكون أكثر من موسيقار ..

وقالت وهى تتنهد مبتسمة :

— المصير حظوظ .. وقد كنت محظوظة دائما .. وسأكون محظوظة بابنى .. وقد قررت أن أبدأ بالزواج فى أول فرصة .

وقال فى دهشة :

— وزوجك الإنجليزى مايكل ..

وقالت ضاحكة :

— انتهت مهمته ..

وقال وهو يحملق فى عينيها كأنه يحاول أن يغوص فى عقلها :

— هل هناك شخص آخر استطاع أن يقنعك بالزواج ؟.

قالت فى بساطة :

— أبدا .. ولكنى فى انتظار هذا الشخص .. وربما أبحث عنه ولا أتركه يبحث عنى .. حتى أبدأ معه فى إقامة عائلة كاملة .. وقد قررت مقدما أن أقيم فى القاهرة دائما .. سأتزوج فى سوق الأزواج بالقاهرة ..

وقال كأنه يعترض :

— ولكن كل أعمالك فى سوق أوروبا ..

وقاطعته قائلة :

— سيظل لى وجود فى سوق أوروبا .. واطمئن .. إنى سأستمر فى الاتجار بمصوغاتك هناك .. واستعاد عبد النور هدوءه كأنه اطمئن فعلا .. وقال وهو يلفها بذراعه ويحتضنها :

— إن من حقك فعلا أن تقيمى عائلة كاملة .. ومن الطبيعى أن تكونى أما ولك أولاد .. ومن حقنا أن تستقرى معنا فى القاهرة ..

وابتسمت سارة ساخرة وهى مستسلمة لأحضانه .. لعله يظن أنها ستبقى له حتى بعد أن تقيم عائلتها الجديدة وبعد أن تصبح أما .. مستحيل .. ستكون ربة بيت وأما وزوجة مثالية .. ولن يكون له منها إلا صداقة بريئة .. مجرد واحد من رجال المجتمع الجديد الذى تقيمه لنفسها .. المجتمع الذى ستعيش فيه شخصية جديدة ..

وكانت قد أبلغت أمها وأخواتها بأنها قد طلقت مايكل وأنها قررت أن تستقر معهم فى القاهرة .. وأنها تريد أن تتزوج لتنجب .. كما قالت نفس الكلام لصديقتها الكبرى هدى هانم .. وبدأت تواجه عددا لا ينتهى من عروض الزواج .. بعضها يأتيها عن طريق أمها والبعض يأتيها عن طريق هدى هانم أو غيرها من الصديقات .. والبعض يأتى من تلقاء نفسه بعد أن سمع أنها تبحث عن زوج .. كأن القاهرة كلها أصبحت تسعى للزواج بها .. لتزويجها .. والقاهرة كلها تعلم أنها قد أصبحت مليونيرة .. وكل مظاهرها تعلن أنها مليونيرة .. وبدأت تعانى من عقدة جديدة .. وبدأت تحس بأن كل من يتقدم لها أنه يريد الزواج من أموالها لا منها .. لا أحد منهم يحاسبها على ماضيها .. لا أحد يهمه أن يعرف كيف جمعت هذه الملايين .. إنهم فقط يريدون الزواج منها .. الزواج من الملايين .. ووصلت عقدتها إلى حد بدأت تفقد تفاخرها بأنها امرأة جميلة تجذب الرجال بلونها الأسمر الغامق وقوامها الطرى والصف اللؤلؤ يبرق بين شفتيها .. حتى إنها بدأت تكثر من الوقوف أمام المرآة والتردد على خبراء التجميل حتى تظل محتفظة بثقتها فى قوة اجتذابها للرجال .. وكانت حائرة فى تحديد الشخصية التى تختارها لتكون شخصية زوجها .. هل تحرص على أن تختار رجلا ثريا أغنى منها حتى لا يكون طامعا فى أموالها .. أم تختار رجلا يقتنع بأنه صاحب مشروعات ناجحة يبحث لها عن رأس مال حتى تمده برأس مالها وهى واثقة أنه يعيش فى مشروعاته لا فى رأس مالها ..

إلى أن تقدم لها شريف رمزى .. إنه يحمل كل روعة الشباب .. لم يصل بعد إلى الأربعين من عمره ... وهو وسيم وسامة فتاكة .. وفى منتهى الحيوية حتى كأنه ينثر الحياة من حوله .. ولم يكن له أى موهبة تميزه فى المجتمع بجانب وسامته وحيويته .. إنه ضابط فى الجيش .. وإن كان دائما مستقرا فى مركز عسكرى لا يبعده عن مجتمع القاهرة ..

ولا تدرى كيف وصل إليها .. إن إحدى الصديقات قدمته إليها .. ولا شك أنها انجذبت إليه واستطاع أن يشغلها بنفسه .. إنه دائما فى كل حفل تقيمه .. ودائما فى زيارتها فى القصر الذى بنته على الأرض الزراعية التى اشترتها على أرض المنصورية داخل مجتمع كبار الأغنياء .. ووجدت نفسها بسرعة تنقاد إليه حتى إنها استسلمت له وهو يحتضنها ثم وهو يقبلها .. ولكنها لن تعطيه أكثر إلا بعد الزواج .. وهو قد عرض عليها الزواج .. وتركها تفكر قبل أن تقبل كما طلبت منه .. تركها وهو واثق أنها لا شك ستستسلم للزواج به .. ولكنه كثير الطلبات .. لقد أصبح يدعو أصدقاءه إلى قصرها ويقيم فيه المآدب والسهرات وهى وإن كانت معه إلا أنه دائما يتصرف كأنه صاحب كل شىء .. وهو يريد أن يتم الزواج بسرعة لأنه يريد أن يسافر بها إلى أوروبا .. وإلى أمريكا .. وهو فى أى وقت يطلب أن تترك له سيارتها المرسيدس .. وتعتذر بأن السائق ليس موجودا .. إنه لا يريد السائق .. يريد السيارة .. ويغيب بها لا تدرى إلى أين ويتركها بعد أن أصبح يحتفظ بمفتاح لها ..

وبدأت تسمع عنه كلاما كثيرا .. سمعت أنه سبق له أن تزوج مرتين .. وتزوج فى كل مرة ابنة أحد رؤساء البلد .. لا شك أنه كان يعيش كرم هؤلاء الرؤساء .. بل لعله كان بفضلهم يحتفظ بقيمته داخل منصبه ومركزه وهو لم ينكر عندما سألته عما سمعته .. ولكنه لم يكن البادىء بإبلاغها .. واعتذر بأنه يعتبر هذه الزيجات ماضيا قد انتهى دون أن يترك فى نفسه شيئا .. ولا يقيده بأى

مسئوليات لأنه لم ينجب من أى زواج .. وكان يعتقد أنها تعرف كل شىء عن ماضيه .. إنه مشهور وليس فى حاجة لأن يقدم كشفا بتاريخ حياته .. وقد ترك كل زوجة .. هو الذى كان يترك وليست الزوجة هى التى تتركه .. وكان يتركها لأنها تريد أن تعيش حياة فارغة تكتفى فيها بأبيها .. ولا تدفعه لبناء مستقبله الخاص .. لعله كان يكذب عليها .. ولعل زوجتيه كل منهما هى التى تركته وهربت منه بعد أن شبعت من وسامته وحيويته و لم يعد فيه ما يدفعها لتعيش له ..

وكل ما تسمعه عن شريف يثير حيرتها أكثر وبدأت تحس كأن كل ما يربطها به هو ضعفها بالنسبة له .. إنه يأخذها كما كان يأخذها عبد النور رأفت .. وإن كان لم يأخذ كل شىء بعد .. إلى أن اقترب منها أحد أصدقاء شريف وهو ضمن الشلة التى كان قد دعاها إلى أرض المنصورية .. وقال لها :

ــ لماذا تؤجلين زواجك من شريف ..

وقالت ضاحكة :

ــ ومن أدراك أنى سأتزوجه ..

وقال الصديق فى دهشة :

ــ لقد كنا نتجول الآن فى الأرض وقال لنا شريف إن هذه الأرض أرضه .. وكل منا يستطيع أن يأخذ ما يريده منها .. بل إن كلا منا يستطيع أن يختار غرفة فى القصر لتكون له .. فهو سيحول القصر إلى فندق مجانى .. وقال إن متعة الأملاك هى متعة التوزيع والإنفاق .. وهو سيمتلك قريبا كل شىء ..

وصدمت ...

أنه يتزوج ما تملكه لاشخصها ..

وهو يعيش أحلام السيد الآمر مغتصب الحق حتى قبل أن يتزوج .. وقررت التخلص منه .. وطردته فعلا بعد أن استعادت منه مفتاح سيارتها المرسيدس ..

وعادت إلى وحدتها تعانى الحيرة .. وتعانى الاقتناع بشخص تتزوجه بإقامة السهرات لصديقاتها العربيات اللاتى كانت تعرفهن فى أوروبا وأصبحت تدعوهن إلى القاهرة .. ولا تكف عن عمليات بيع المجوهرات والفراء ومطالب النساء .. والتفاف نساء الطبقة الثرية العربية حولها جعل القاهرة تتحدث عنها وعن ملايينها أكثر ..

إلى أن جاء يوم استخدمت فيه سائقا لسيارتها .. إنه شاب رائع القوام .. هادىء السمات .. ولونه أسمر داكن كلونها .. وبدأت تحس بالراحة وهى بجانبه .. إنها تركب السيارة دائما فى المقعد الأمامى وهو يقود السيارة .. وتحس كأن كليهما من طبقة واحدة .. ليست هى الغنية وهو الفقير . ليست هى السيدة وهو الخادم . تحس بهدوئه وهو أمام عجلة القيادة يشملها ويمتعها بهدوء كانت محرومة منه دائما .. وهو مهذب دائما حتى كانت تضيق بهذا الاحترام المهذب وتتمنى أن يتجرأ عليها .. ولو بنظرة .. ولو بكلمة .. وبدأت تسائل نفسها .. لماذا لا تتزوج الأسطى عثمان .. لقد ولدت وعاشت فى نفس الطبقة الاجتماعية التى يعيشها هو اليوم قبل أن تجمع ملايينها .. إنها تحس بأنها لو تزوجته فستعود إلى أصلها .. وهو أسمر غامق السمار كأبيها .. وهى تريد أن يكون ابنها أو ابنتها داكنة السمار .. إن هذا اللون أقوى اجتذابا للبيض واستطاعت به أن تحقق كل هذا النجاح وكل هذه الملايين ..

ولكنه قد يطمع هو الآخر فى ملايينها .. قد يتزوجها فقط ليعيش هذه الملايين كما حاول كل الرجال الذين تقدموا إليها .. إنها تعودت كلما نظر إليها رجل وهو يمنى نفسه بها أن تسائل نفسها .. هل يريدها ليضعها فى قلبه أم ليضع ملايينها فى جيبه .. هل يحبها أم يحب الفلوس التى معها .. وكانت تنتهى دائما إلى أن الرجل لا يريدها هى ولكنه يريد ثراءها .. ولن يحاول أن يضعها فى قلبه ولكنه يحاول أن يضعها فى جيبه .. والجيوب تنتصر دائما على القلوب .. وستكون ضحية فى

جيب رجل .. وإن كان عثمان لم يبد منه حتى اليوم أنه يريدها سواء لقلبه أم لجيبه ..

وأحست بالثورة على نفسها .. لماذا تلقى نفسها فى العذاب وهى تبحث عن رجل .. لماذا لا تعترف بالواقع الذى أصبح يجمع بينها وبين أموالها فى إطار واحد .. إنها لا تستطيع أن تتجرد من أنها امرأة ثرية .. ولا تستطيع أن تكون لرجل إلا ومعها ثراؤها .. ولن تستطيع أبدا أن تفرق بين أطماع رجل فى ملايينها وأطماعه فى حبها .. ثم إن كل امرأة تشترى الرجل الذى تعيش معه .. قد تشتريه بخدمته .. أو تشتريه بالإنجاب له .. أو تشتريه حتى بمجرد توفير المتعة له .. وهى ستشترى الرجل بثرائها .. ستشتريه بالقرش فوق القرش .. وكل ما هنالك أنها يجب أن تكون قادرة على حماية ملايينها من الأطماع مع الاحتفاظ بالرجل الذى اشترته .. ولا شك أنها قادرة على الاحتفاظ بسيادتها على نفسها لو تزوجت الأسطى عثمان .. إنه مهذب هادىء وإذا كان لم يتجرأ عليها حتى اليوم رغم كل ما تحثه به على الجرأة فهو أيضا لا يتجرأ على أملاكها ..

ومدت يدها إليه وهو يقود السيارة وقالت فى كلمات ترن بين صف اللؤلؤ الذى يبرق بين شفتيها :

— علمنى القيادة ..

ورفع ذراعه فوق كتفيها لتقترب منه وتمسك بعجلة القيادة .. وتعمدت أن يحس بها ملتصقة به .. كأنها فى أحضانه .. ولكنها عندما عادت إلى البيت وألقت بنفسها على فراشها وجدت نفسها لا تزال حائرة ..

ودفنت وجهها فى الوسادة وبدأت تبكى وكأنها تبكى نفسها .. ودموعها لا تريح حيرتها ..

إنها ليست فى حيرة بين الرجال باحثة عمن يحبها لشخصها لا للملايين التى أصبحت لها .. إنها فى حيرة مع نفسها هى فإنها هى التى لا تستطيع أن تنسى أنها

أصبحت ثرية .. وأن بين يديها الملايين .. وكل عواطفها أصبحت داخل البنوك التى تضم أرصدتها .. أصبحت عواطفها مجرد أرقام .. تخاف أن يعتدى رجل عليها ويلخبط لها الحساب .. حتى لو دفعها إلى هذا الرجل ما يسمى بالحب .. إنها لا تحب إلا أرصدتها فى البنوك . لا تحب إلا العمر الطويل الذى قضته تسعى إلى جمع كل هذه الملايين .. إنها هى التى لا تستطيع أن تنتشل نفسها من جيبها لتعيش مع قلبها .. كأنه لم يعد لها قلب ..

تمت

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب